السلسلة التاريخية

عز الدين القسام

علي حسين خلف

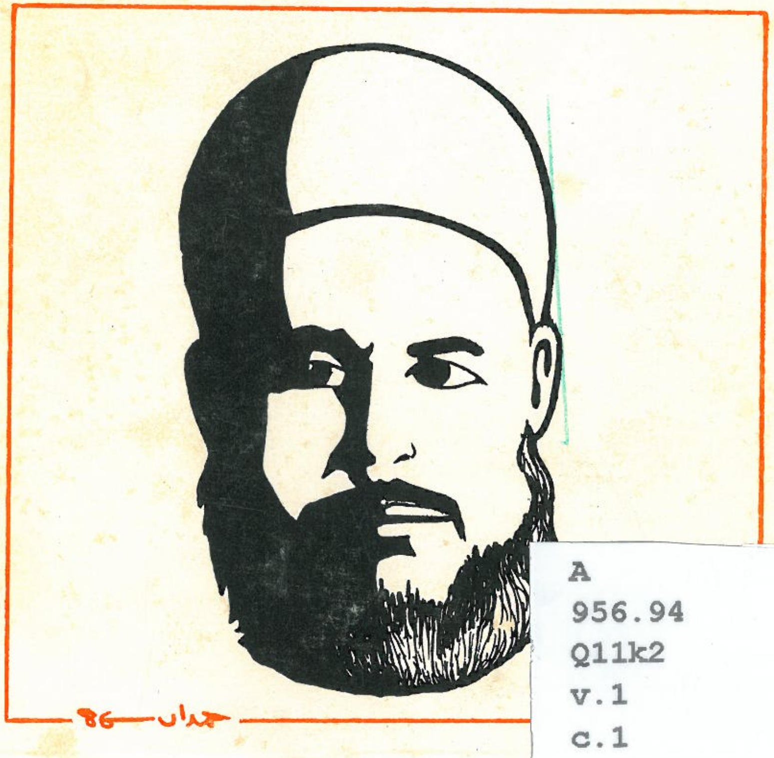

A
956.94
Q11k2
v.1
c.1

علي حسين خلف

A
956.94
Q11k2
v.1

تجربة الشيخ عز الدين القسّام

الجزء الاول

LAU Beirut campus
18 NOV 2016
Riyad Nassar Library
RECEIVED

Gift 263769

* علي حسين خلف :

تجربة الشيخ عز الدين القسّام

* جميع الحقوق محفوظة

* الطبعة الثانية ١٩٨٦

* الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع

سورية ـ اللاذقية ـ ص ب ١٠١٨ ـ هاتف ٢٢٣٣٩

الفصل الاول

تجربة القسام السورية

١٨٨٢-١٩٢١

تُختزل تجربة الشيخ عز الدين القسام، ما قبل دوره الفلسطيني، ببضعة اسطر تغطي اسم قريته، وتتلمذه على يد الشيخ محمد عبدة في الأزهر، ومشاركته في الثورة ضد الفرنسيين. مما يفسح المجال أمام الاسقاطات الذهنية من خارج التجربة، ويدفع البعض لابتكار الحكايات من أجل رتق النواقص والثغرات.

والخطأ الفادح لهذا المنهج الاسقاطي- الاختزالي، انه يقدم القسام، في تجربته الفلسطينية، مجرداً من خلاصات تجاربه الأسبق، سواء التي ساهم بنفسه في صنعها، أم صنعتها المرحلة التاريخية وقدمت دروسها الثمينة، بعلنية ساطعة.

وفي الاطار العام، فالشيخ عز الدين القسام، لم يذهب الى فلسطين، ليبدأ تجربته الجديدة من الصفر، بل ذهب ليطبق خلاصة ما آمن به ويطوره؛ وهي خلاصة ليست بعيدة عن واقع الحركة الوطنية الفلسطينية آنذاك. أي أنه لم يقم باستنساخ ميت لخلاصات مضت، ولا بابتكار نوعي لا جذور له. ويمكن القول ان تجربة القسام السورية، رغم نقص المصادر والمراجع، وغياب معظم معاصريها، هي المدرسة الأولى التي صقلت تطلعاته وايمانه، واختبرتها في ميدان الثورة المسلحة.

وضعف التاريخ المكتوب والشفوي لتلك المرحلة، لا يبرر للدارسين، استسهال نقل المعلومات من مصدر واحد، دون تدقيق، وباشكالية حولت القسام من شخصية حقيقية الى شخصية احتمالية. فكل الذين نسبوا تاريخ ميلاده الى عام ١٨٧١، استناداً الى كتابات صبحي ياسين، خسروا، دون أن يدروا، تتلمذه على يد الشيخ محمد عبده. اذ يكون القسام قد درس في الأزهر، قبل وجود الشيخ محمد عبدة بعشر سنوات، وتخرج قبل مجيئه بسنتين! ولم يتطوع واحد من الباحثين، بذكر ماهية هذا التتلمذ، دينياً وسياسياً.

وفي تجربته، ضمن الثورات السورية في الشمال، تأكد لدى القسام أن افندية الأرض والحكم، لا يساومون استناداً الى مواقع السلطة فحسب، بل ويساومون داخل الثورة المسلحة. فتطابق الدرس التاريخي مع درس الحياة المعيش، في التقابل بين عرابي، وهو وزير دفاع الخديوي توفيق، الذي قاتل منفرداً وتحمل النفي، وبين يوسف العظمة، وهو وزير دفاع الأمير فيصل، الذي قاتل

واستشهد منفرداً . وجاءت خبرة الثورة لتستكمل الدرس ، عندما أوقف صبحي بركات ثورة الاسكندرون ، وهو قائدها ، وانحاز للفرنسيين ، وعندما قام أسياد الأرض بقيادة الحملات الفرنسية بحثاً عن مكامن الثوار .

ولأن القسام ليس بحاجة الى انصاف من خارج تجربته ، فان دراسة الخلاصات التي عينتها ممارسته ، ودروس المراحل التي عاش فيها ، هي وحدها القادرة على الحياة ، بعيداً عن الحب الاسقاطي الساذج والاختزال الكسول .

بيئة التناقض

قدمت قرية «جبلة» القرية الواقعة على البحر ، جنوب اللاذقية ، حيث ولد الشيخ عز الدين القسام عام ١٨٨٢م ، بيئة نموذجية للتناقض . واستمدت العائلات الرئيسية مكانتها من ملكية الأراضي «آل كنج - آل ديب - آل آغا» ، أو التجارة (آل عكو - آل غلاونجي) ، أو الفقه والشريعة (آل القسام - آل يونس) .

ومنذ صدور قوانين الطابو في العهد العثماني (١٨٦١م) ، حيث الزم مالك الأرض بدفع ٥٪ من قيمتها وثلاثة قروش ثمن سند الطابو ، تهرب الفلاحون الفقراء من تطويب أرضهم ، بسبب عجزهم عن دفع الرسوم ، رغم أن رسوم الاستملاك وصلت الى حد «نصف قرش للدونم الواحد في لواء دمشق ، وثلاثة قروش في قضاء حمص»[١] . وانفتح البابُ أمام الملاك الكبار والمتوسطين ، لتوسيع حيازاتهم ، عن طريق تطويب أراضي الفلاحين الفقراء بأسمائهم ، ووضع اليد على الأراضي ، «وكان باستطاعة كل رجل غني أن يصبح ملتزماً لقطعة من الأرض»[٢] . ولم يتعامل الملاك الجدد مع أصحاب الأراضي الشرعيين على القاعدة الاسلامية . «المالك الذي لا يبذر أرضه يجب أن يسمح بزرعها لأخيه المسلم»[٣] ، بل على قاعدة المحاصصة أو الضمان السنوي . وحينها ظهر لقب أفندي كمرادف للملاك الكبير ، حيث كانت معظم قرى حمص ، حماه ، السلمية وحلب ، بيد الاقطاعيين والدولة الاقطاعية[٤] .

وكان هؤلاء الأفندية هم ملاك القرية وسادتها ، ووكلاء الحكم العثماني فيها . وليس صعباً ، تلمس مفاسد الحكم ووكلائه ومظالمهم .

وفي اسرة متدينة ، متوسطة الحال تميل الى الفقر ، وبعيدة عن زعامة الملاك الكبار ونفوذ العائلات التجارية ، عاش عز الدين القسام طفولته . وكان فخر الأسرة الأسمى انها منسوبة الى النبي ، وذات سمعة محمودة بالاستقامة .

أبوه ، الشيخ عبد القادر القسام ، كان صاحب طريقة صوفية ، وله مدرسة « كتاباً » يعلم فيها الأطفال أصول القراءة وحفظ القرآن ، وعمل لفترة من الوقت كمستنطق في المحكمة .

وتزوج عبد القادر من امرأتين :
الأولى حليمة قصّاب ، وانجب منها عز الدين وفخر الدين ونبيهة[٥] .
الثانية آمنة جلول ، وانجب منها أحمد ، مصطفى ، كامل وشريف[٦] .

وفي حدود الرابعة عشرة من عمره (١٨٩٦) ، غادر عز الدين القسام قرية « جبلة » ، متوجهاً الى القاهرة ، لدراسة الشريعة في الأزهر . وكان برفقته أخوه فخر الدين ، عز الدين التنوخي ، رضا مسيلماني ، مصطفى مسيلماني ، ذيب البيرص ، ناجي أديب ومنح غلاونجي[٧] . وكان أخوه من أبيه ، مصطفى ، قد غادر منطقته كبائع متجول للأقمشة (برجاوي) ، وذهب الى اليمن ؛ حيث عمل كاتباً في الحديدة حتى توفي مصاباً بمرض الكوليرا ، بعد أن أنجب ولدين : عبد المالك وظافر .

الأزهر : الدين والثورة

وما أراد التقاطه في بيئة التناقض الأولى ، وجده جاهزاً في القاهرة ، على شكل دروس فشل ثورة عرابي . ففي سنة مولد القسام ، كانت مصر تقدم تجربتها

- الخديوي توفيق ، رمز السلطة الحاكمة ، يقف ضدّ ثورة شعبه التي يقودها وزير دفاعه عرابي ، ويساند الأسطولين البريطاني والفرنسي في مياه الاسكندرية . ثم يغمض عينيه عن قصف المدينة وتدميرها ، ويعود الى القاهرة ، في عربات قوات الاحتلال البريطاني ، ويبيع عاصمة وطنه للغزاة .
- قبل قصف الاسكندرية ، لجأت بريطانيا الى المساومة مع عرابي ، عبر آل روتشيلد ، الأسرة البرجوازية الصهيونية التي تسلمت وعد بلفور لاحقاً . فعرض فرعها البريطاني على عرابي راتباً تقاعدياً مدى الحياة ، بمبلغ أربعة

آلاف جنيه مصري في العام. وعرض فرعها الفرنسي مبلغ ستة آلاف جنيه مصري في العام، مقابل مغادرته البلاد[٨]. فرفض عرابي المساومة، مثلما رفض الخضوع لابتزاز الاسطول، وقاتل حتى هزم.

- عرابي، وزير الحربية في وزارة محمود سامي البارودي، أعرض عن قرار الخديوي بعزله (٢٠/٧/١٨٨٢)، وقاتل في التل الكبير (١٣/٩/١٨٨٢)، معتمداً على جيش الفلاحين الفقراء.
- الشيخ محمد عبده، الصحافي البارز في «الوقائع المصرية» ومجلة «العروة الوثقى» ومدير المطبوعات في عهد رياض باشا، كان في الاسكندرية يوم قصفها الأسطول (١١ /٧/١٨٨٢)، وظل مع ثورة عرابي، وتحمل شرف السجن والمحاكمة والنفي لمدة ثلاث سنوات، ولم يتراجع.

هكذا كانت تختلط ملامح رجل الدين المتنور بملامح رجل الثورة وهما معاً، على تضاد دائم مع قوات الاستعمار وأدواته في قمة السلطة أو في مؤسساتها وقاعدتها.

ويبدو أن فترة دراسة عز الدين القسام في الأزهر، تقع اثناء مشاركة الشيخ محمد عبدة، كممثل للخديوي عباس الثاني في مجلس الادارة، ما بين ١٥/١/١٨٩٥ و١٩/٣/١٩٠٥. والأرجح أنها كانت بين ١٨٩٦و ١٩٠٤، وبخاصة أنه نال الشهادة الأهلية التي تتطلب ثماني سنوات من الدراسة. لذلك كانت فترة دراسته كلها، تتلمذاً على يد الشيخ محمد عبدة.

وشهد الأزهر، في هذه المرحلة، حملة التجديد التي قادها الامام محمد عبدة. فحوّل الأزهر من ملجأ للكسالى والمعدمين، الى موقع ثقافي، عندما أدخل على مواده القديمة وكتبه الجامدة، علوم الحساب، الهندسة، الجبر، الجغرافيا والتاريخ، لأول مرة. وقاد داخل الأزهر وخارجه، حملة تحرير الدين من الشوائب. فساند دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة*، وأجاز لبس القبعة للمسلم، وصحة دفع الفوائد من صندوق التوفير، وأصدر فتوى بعدم تحريم التصوير.

وعلى قاعدة «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»، رفض محمد عبدة تعدد الزوجات، مشيراً الى الآية القرآنية «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم»، والى الظروف التي نشأ فيها هذا النظام، وبخاصة على يد من احتكروا

الرئاسة والثروة في العصر الجاهلي.

ومايز محمد عبدة بين الاسلام والاستسلام فأكد، في جريدة «العروة الوثقى»، أن من أسباب حفظ الأمة «الاتحاد وعدم الاعتماد على الأجنبي والشورى». واستكمل في جريدة «المنار» دعوته، معتبراً أنه من سمات الأمة الصالحة الا «تقبل الأمراء والحكام الفاسدين الظالمين، بل تسقطهم، اذا نزوا على مصالحها وتُولي الخيار»[٩].

آنذاك، كانت مصر تقدم ممثلها الجديد، الزعيم مصطفى كامل، كبطل للدعوة الاستقلالية. ورغم التفاوت بين زعيم البرجوازية المصرية الناشئة، وبين الخديوي توفيق، الحاكم بحراب الانكليز، وممثل الاقطاع والأرستقراطية العائلية، فان القاعدة التي شرعها الخديوي وقف فوقها مصطفى كامل، وامتدت، من بعده، الى محمد فريد وسعد زغلول. فالكل حرص على استبعاد العنف الجماهيري والكفاح المسلح كطريق لمجابهة الاحتلال، ولجأ مصطفى كامل وورثة نهجه، الى الاعتماد على الصراع بين الدول الاستعمارية الأوروبية، ومحاورة الاستعمار بأسلوب سلمي، يعتمد المناظرات الكلامية «من خطب، مؤتمرات، ندوات، مقالات، اشعار، رسوم وصداقات مع مؤلفين وكتاب»[١٠].

هكذا تتلمذ عز الدين القسام على يد الشيخ محمد عبدة، وعلى يد دروس عصره في مرحلتي هزيمة عرابي وأساليب مصطفى كامل. فوجد في الأول الثائر والمصلح الاجتماعي، لا الاداة الميتة في العمة والقفطان. ووجد في دروس عصره، ما أبعده عن قيادة الأفندية و«البكاوات» وأساليبهم في النضال. وهي الدروس التي طبقها في شمال سوريا عبر الثورات المسلحة.

ومما يروي عن القسام، في هذه المرحلة، أنه عانى وزميله عز الدين التنوخي، من انقطاع المصاريف، ونفاد ما بحوزتيهما. وفقد التنوخي الأمل بامكانية الخروج من المأزق، وظل يحاور القسام، عما يفعلانه، فاقترح القسام قائلا:

- سنعمل هريسة ونبيعها للطلاب!

فاستفظع التنوخي الأمر، وفي محاولة للتملص قال:

- ولكنني أخجل ، ولا أستطيع المناداة .

فأجابه القسام :

- أنا أصيح على بضاعتنا .

وبهذه الوسيلة ، تمكن الاثنان ، من مواصلة الدراسة ، القسام يصيح والتنوخي يلازمه وقوفاً .

وذات يوم ، جاء والد التنوخي لزيارته في القاهرة . وقبل دخوله الأزهر ، وجد ابنه الى جوار القسام ، وكلاهما خلف صدر الهريسة ، فسأل مستفسراً :

- ما هذا ؟

فأجابه ابنه ، محاولاً رد التهمة عن نفسه :

- عز الدين القسام علمني ، وهو صاحب الفكرة !

ولم يصدق الابن ، حين سمع أباه يقول :

- حقاً : .. لقد علمك الحياة(١١) !

الايمان في التطبيق

عاد عز الدين القسام الى قريته «جبلة»، حاملاً شهادته الأهلية من الأزهر، عام ١٩٠٣ . حاول أبوه ، الشيخ عبد القادر ، أن يقنعه بضرورة أن يذهبا معاً الى قصر الأفندي ديب ، ليسلما عليه . فرفض الابن نصيحة أبيه قائلاً : أيسلم الوافد على المقيم ؟ ! وكانت أول بادرة ، تكسر العُرف المقلوب ، ارضاء لاسياد الأرض ، وتسترد للمواطن حقه في عدم الانحناء .

وقبل أن يباشر العمل، قام برحلة الى تركيا(١٢)، للاطلاع على طرق التدريس في جوامعها، وعلى خطب الجمعة ودروس ما بعد صلاتي العصر والمغرب. وعاد الى قريته، مرة أخرى، وهو أشد اقتناعاً، بأن حصر امام المسجد في فروض الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج، الوضوء، وغيرها، لا يؤدي فقط الى أن يخل الامام برسالته الدينية، بحذفه أو تجاهله الدور المطلوب من المسلم، وانما أيضاً يدفع المؤمنين الى الاستكانة والتواكل والرضى ، ويساهم في عزلهم عن قضاياهم وقضايا شعوبهم .

وبدأ يعد نفسه، دون استعجال او قنوط، بدءاً من الجيل الجديد ، فأخذ دور والده في تدريس أطفال القرية ، وتجاوز الحدود التقليدية في حفظ القرآن وتجويده ، الى العلوم الأولية والقراءة والكتابة . وحينها عمل إماماً لمسجد

المنصوري ، الذي يتوسط البلدة ، مكتفياً بخطبة الجمعة . وقدم لسكان قريته الاسلام ، كما آمن به وتعلمه ، فدب في القرية حماس ديني شديد « فكانت شوارعها ترى مقفرة اذا أذنت صلاة الجمعة »(١٣) .

وأصبح الشيخ عز الدين القسام ، الأزهري المتنور ، ذو الأصول الفقيرة ، محط احترام سكان القرية وتقديرهم ، بل وامتدت سمعته وصداقاته الى قرى جبل صهيون وجبل العلويين .

وعندما حاصر الأسطول الايطالي مدينة طرابلس في ليبيا (٣٠/٩/١٩١١) ، قاد القسام بنفسه ، مظاهرة طافت شوارع البلدة وهي تهتف :

يا رحيم ويا رحمان
غرّق أسطول الطليان(١٤)

انتقل الأسطول من المحاصرة الى الاحتلال ، فانتقل القسام من المظاهرات الى التطوع القتالي و« انتقى ٢٥٠ متطوعاً ، وقام بحملة تبرعات كي يؤمن معاش هؤلاء الرجال وعائلاتهم . واتصل بالسلطات العثمانية ، فأبدت ترحيباً حاراً ، وطلبت من هؤلاء المتطوعين السفر الى الاسكندرونة ، كي يستقلوا باخرة الى طرابلس الغرب . وبعد أن وصلوا الى اسكندرونة ، انتظروا فيها أربعين يوماً دون جدوى . ثم تلقوا الأمر من السلطات بالعودة الى بلدهم ، فبنوا مدرسة بمال التبرعات لتعليم الأميين »(١٥) .

وكان سبب اعادتهم أن تركيا اعترفت بضم ليبيا الى ايطاليا بمعاهدة ١٨/١٠/١٩١٢ ، فقاتل الليبيون وحدهم ، واستعاد القسام درس الخديوي توفيق مع ثورة عرابي .

ثورات الشمال : استكمال الدروس والتجارب

بين إعلان الحسين بن علي ، الثورة على الأتراك في مكة (١٠ - ٦ - ١٩١٦) ، وبين انتكاسة الثورة ، في الشمال السوري (١٥ - ٦ - ١٩٢١) ، عاش عز الدين القسام تجربته الأغنى ، في اطار الثورة المسلحة وتفاعلات الوضع السوري . وخاصة أنه « أول من رفع رأيه مقاومة

فرنسا في تلك المنطقة ، وأول من حمل السلاح في وجهها »[١٦] . فاندلاع الثورة في جبال صهيون ، كان « من نتاج دعاياته »[١٧] ، كما كان في « طليعة المجاهدين »[١٨] .

قبل سقوط الساحل السوري ، بيد القوات الفرنسية ، في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٨ ، باع عز الدين القسام بيته ، وهو كل ما يملك ، وانتقل الى قرية « الحفّة » مع زوجته وأولاده . وفي قرية « الحفّة » . أخذ يعطي الدروس التحريضية ، تمهيداً لاعلان الثورة[١٩] ، مستفيداً من الموقع الحصين للقرية ، وطابعها الفلاحي .

وتيمناً بما فعله القسام في بيته ، قبل خروجه ، عمد المجاهد ابراهيم هنانو ، الى « أثاث بيته فأتلفه ، والى مطحنته فأحرقها ، حتى لا يترك للفرنسيين مجالاً للتشفي والانتقام ، اذا كانت الغلبة لهم ، مستشهداً بالقول المأثور : « بيدي لا بيد عمر .. »[٢٠] .

وعلى أرض الثورة في الشمال ، كانت تمتحن مواقف الملاكين الكبار ، والذين وقف معظمهم خارج الثورة ، وقاد بعضهم (علي بدور - خير بك — الكنج) الجيوش الفرنسية الى مواقع الثوار . وقلة قليلة ، انسلخت عن امتيازاتها ، وانحازت للثورة ، ومن بينها الشيخ صالح العلي نفسه ، قائد ثورة جبل العلويين ، الذي توفي عن « أربع زوجات وثلاث بنات ، وما يزيد عن ثلاثين الف دونم ، وقفها كلها لأعمال الخير والبر والاحسان ، وبناء مسجد في قرية الرستن ، ومستوصف ومدرسة متوسطة في الشيخ بدر ، والانفاق عليهما »[٢١] . وعزيز آغا هارون ، الذي شارك بثورة صالح العلي « وألف فوجاً من المتطوعين يبلغ زهاء أربعمائة مجاهد ، جهزهم بالسلاح والعتاد من ماله الخاص »[٢٢] .

كانت الثورة ، بتنوع تجاربها وتحالفاتها ، مدرسة تربى في قلبها الشيخ عز الدين القسام ، وتمثل دروسها الايجابية والسلبية ، التي صقلت خبراته الأولى في القاهرة وقرية جبلة . ولم تكن الثورة مدرسة منغلقة في الشمال ؛ اذ تقاطعت مع كل ما جرى في دمشق ، من صراع الأمراء ومساوماتهم ، ومراهناتهم على الدورين الانكليزي والفرنسي . وجربت الثورة مباشرة، تجربة التحالف مع كمال اتاتورك والأمير فيصل ، ولكل من التجربتين دروسها المرة .

ولا تستقيم قراءة تجربة عز الدين القسام ، في اطار ثورات الشمال ، عبر اقتباس الجمل ، الدالة على دوره المباشر ، ومساهماته الميدانية ، لأنها تكون كمن يقرأ لوحة « غيرنيكا » الشهيرة للفنان بيكاسو بأنها تساوي : أربع نساء ، طفل ، تمثال مكسور لمحارب ، ثور ، حصان وطائر ! واذا كان أسوأ ما في اللوحة ، هو هذا التلخيص القادم من خارجها ، فان أسوأ قراءة لتجربة القسام ، هي التي تعزله عن محيطه ، وتقدم دروس خبرته بعيداً عن دروس الوضع العام . خاصة وان استخلاصاته هنا ، لا تنبع من المناقشة ، كما كان الأمر مع نتائج ثورة عرابي في القاهرة ، وانما من المعايشة والمساهمة المباشرة . ولذلك فقراءة ثورات الشمال ، تبدأ من الثورة العربية ، وتتقاطع مع الحكم الفيصلي في دمشق ، وصولاً الى خبراتها الخاصة ، ومجابهتها المنفردة ، قبل التصفية النهائية ، لمواقع الثورة الرباعية في جبال العلويين ، جبال صهيون ، جبل الزاوية والاسكندرون .

الحسين

اتصل السوريون بالشريف حسين، لأول مرة ، عام ١٩١٥ ، عندما ذهب الشيخ كامل القصاب الى مكة ، متخذاً من موسم الحج ستاراً . ونقل كامل القصاب للشريف حسين ، مطالب السوريين وهي « الاستقلال التام » و« انهم لا يحاربون الاّ اذا ضمنوه »[٢٢] . ويبدو أن اتفاقاً بهذا المضمون قد عقد بين الرجلين . حيث جاءت زيارة الأمير فيصل لدمشق (٢٦ آذار - مارس ١٩١٥) لتتويج هذا الاتفاق بخطوات عملية . وعاد الأمير الى الحجاز « ومعه أختام رجالات سوريا بأجمعهم ، وكانت تتجاوز المئتي ختم موضوعة في كيس »[٢٤] .

الخيط الثاني عقده الشريف حسين مع الأمير سعيد الجزائري في مكة ، عندما فوّضه بأن « يحسن العلاقات بينه وبين جمال باشا »[٢٥] .

وفي موسم الحج اللاحق (١٩١٦) « أخرج الحسين علماً ، وصلى عليه أربعون ألف مسلم من الحجاج ، وطاف بالعلم سبع مرات حول الكعبة ، ثم سلمه للأمير عبد القادر [شقيق الأمير سعيد] ليرفعه على سراي دمشق ، باسم الحسين ملك العرب »[٢٦] ....

وحتى يطمئن السوريين ، كان الشريف حسين ، وراء اللقاء الذي عقد بين

السوريين والبريطانيين ، والمعروف باسم العهد البريطاني للسوريين السبعة ؛ حيث نصت بنوده على « رغبة الحكومة البريطانية بانقاذ عامة الشعوب الناطقة بالعربية من ربقة الاتراك ، وتركها تعيش في ظل الحكم الذي تريده »[٢٧] واستناداً الى هذا الاتفاق ، واتفاقه مع الحسين عام ١٩١٥ ، أصدر الشيخ كامل القصاب ، وكان على رأس السوريين السبعة ، فتوى دينية ، تبيح مقاتلة المسلمين العثمانيين واعلان الثورة ضدهم .

ولبى الشيخ صالح العلي ، « نداء الحسين وفتوى القصاب ، فقطع على الأتراك « الطريق التي تصل طرطوس بحماه ، عن طريق مصياف ، وكان مقره في ناحية الشيخ بدر التي تمر بها هذه الطرق »[٢٨] . وفي ربيع عام ١٩١٨ ، هاجم القوات التركية قرب « النيحا » . واستولى على معدات وذخائر عديدة[٢٩] .

وبذلك نجح الشريف حسين ، في استخدام الخيوط الأربعة المرتبطة به رأسياً ، دون أن تقوم فيما بينها أية صلة .

ولكثرة ما أثير من ملابسات ، حول مراسلات الحسين ـ مكماهون ، فان تقرير لجنة بيل ، اشتمل على نص رسالة الحسين (١٤/ تموز / يوليو ١٩١٥) ، إذ قال فيها

«يجب ان تعترف انكلترا باستقلال البلاد العربية التي يحدها شمالاً مرسين وأضنه حتى الدرجة ٣٧ من خط العرض ، الذي يقع عليه بيره جك وأورفه وماردين ومديان وجزيرة أماديه حتى حدود فارس . وشرقاً حدود فارس حتى خليج البصرة . وجنوباً المحيط الهندي ، يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي . وغرباً البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى مرسين »[٣٠]

وتضمنت الرسالة الجوابية لهنري مكماهون ، المندوب السامي البريطاني في مصر ، والمؤرخة ب٢٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٥ ، على الاعتراضات التالية :

«سنجقي مرسين والاسكندرونة ، وبعض الاقسام السورية الواقعة في غربي سناجق دمشق وحمص وحماة وحلب ، لا يمكن أن يقال عنها أنها عربية محضة ، ولذلك يجب أن تستثنى من الحدود المقترحة »[٣١] .

«وان انكلترا مستعدة ، على أساس التعديلات المشار اليها أعلاه ، ان

تعترف باستقلال العرب ضمن البلاد المشمولة في الحدود والتخوم التي اقترحها شريف مكة ، وأن تؤيد ذلك الاستقلال بريطانيا العظمى »[٣٢] ..

حقاً ، لقد ضمن الحسين ، في المراسلات ، استقلال أقطار آسيا العربية ، ومن بينها فلسطين ، بصيغة لا تخلو من المداورة . وعلى نمطه نسج مكماهون رسالته في الاستثناءات . ومع ذلك ، فالحسين نفسه ، كتب في جريدة « القبلة » ، مقالاً ، حول الهجرة اليهودية ذكر فيه عرب فلسطين ب « أن كتبهم المقدسة وتقاليدهم توصيهم بواجبات الضيافة والتسامح »[٣٣] .

بهذه الخطوات المتعاكسة ، وبالاعتماد الكلي على البريطانيين ، أخذ الحسين يخسر بالمساومة الدبلوماسية ، ما يحققه بالاتفاقات الصريحة والملتوية ، وبالمقاومة المسلحة عبر الأنصار العرب . ومثلما برهن احتلال العقبة ، على مقدرة الأنصار العرب في نظر الحلفاء ، و « ضرورة تقويتهم ودفعهم نحو الشمال ، ليعملوا أمام جيش فيصل ، الذي أصبح يشكل الجناح الأيمن للجيش البريطاني ، بقيادة الجنرال اللنبي »[٣٤] ، برهنت استجابة الشيخ صالح العلي ومقدرته في تفجير الثورة ، وقيادة عمليات ناجحة ، على امكانية استخدام الثورة في الشمال ، كورقة ضغط في وجه الانكليز والفرنسيين . ولكن الأسطول الفرنسي ، كان أسرع من الحسين وابنه الأمير فيصل ، فاحتل اللاذقية في ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٨ ، ووضع الثورة أمام الانكفاء وإلقاء السلاح ، أو تجديد القتال على أسس جديدة . واختار صالح العلي ، وقادة جبل صهيون ، وقادة جبل الزاوية ، مواصلة الثورة ، فأعيد تفجيرها في منتصف كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٨ ، وهذه المرة ضد القوات الفرنسية مباشرة .

صراع الأمراء وتحفة لورنس

بقدر ما راهن الحسين ، ومن ثم ابنه الأمير فيصل ، على جهود الأمير « محمد سعيد »* في التفاهم التركي ـ العربي ، كخط احتياط ، وكواجهة تختفي خلفها الجهود التحضيرية للثورة ، فقد كان الطرفان يخشيان نفوذ الأمير سورياً ، ويسعيان الى اقصائه . وما أربك خطط الطرفين ، ان الأمير سعيد ، استغل انهيار الجيشين التركيين السابع (بقيادة مصطفى كمال أتاتورك) والثامن ، وسيطر على دمشق بواسطة الحرس الشعبي (من المغاربة) (٧ /١٠/١٩١٨) . كان

ذلك قبل وصول الأمير فيصل بثلاثة أيام ، وقبل وصول لورنس والشريف ناصر بيوم واحد .

وطلب الأمير سعيد من صديقيه معروف الأرناؤوط وعثمان قاسم ، احضار علم الحسين ، الذي أحضره شقيقه عبد القادر من مكة . وعندما عادا به « خرج من السراي ، واستلم العلم بيده ، ورفعه على سراي الحكومة بين الهتافات »[٣٥] . وأصبح أول رئيس للحكومة العربية السورية .

وكان طبيعياً أن يفسر لورنس ما حدث، على أنه استفزاز ومؤامرة ضد الانكليز . ولكن الأمير سعيد ، وهو يخلي كرسي الحكومة ، قال للشريف ناصر ، بحضور لورنس :

« انني أصادق على ما قاله أخي [يقصد الأمير عبد القادر] من تسليم هذا الكرسي اليك ، لا خوفاً من تهديد لورنس ، وانما من قبيل تأدية الأمانة الى أهلها »[٣٦] .

وكان الأمير سعيد ، قد نفذ خطوة أولى ، اعتبرها الفرنسيون استفزازاً مباشراً لهم ، عندما أبرق الى عمر الداعوق ، طالباً منه اعلان انضمام بيروت للحكم العربي ، واستقبال شكري باشا الأيوبي ، كحاكم عسكري للمدينة . واحتجت فرنسا لدى بريطانيا ، فأصدر الجنرال اللنبي ، رئيس القيادة العليا ، قراراً قسم فيه البلاد السورية الى ثلاث مناطق ، وأطلق عليها اسم « بلاد العدو المحتلة » :

- **المنطقة الشرقية** : وتشمل ولاية سوريا القديمة ، من معان حتى حدود تركيا ، مع أقضية أدلب وجسر الشغور والباب غرباً ، والفرات شرقاً ، على أن تديرها حكومة عربية صرفة يتولى رئاستها الأمير فيصل بن الشريف حسين .
- **المنطقة الغربية** : وتضم لواء بيروت .جبل لبنان ولواءي اللاذقية وطرابلس من ولاية بيروت القديمة ، وقضاءي انطاكية والاسكندرونة من ولاية حلب ، وتدير هذه المنطقة فرنسا .
- **المنطقة الجنوبية** : وتشمل فلسطين من الحدود المصرية جنوباً حتى الناقورة غرباً ، فنهر الأردن شرقاً ، وتضم لواء القدس ولواءي نابلس وعكا من ولاية بيروت القديمة ، وتتولى القوات البريطانية ادارتها[٣٧] .

فأنزل العلم العربي عن سراي بيروت في ١٨/١٠/١٩١٨ ، بعد عشرة أيام من رفعه ، وقال عمر بك الداعوق ، رئيس البلدية ، مرحباً بالجنرال غورو « ان مدينة بيروت التي اتشرف برياستها تحيِّي في شخصك الكريم مثال المزايا الانسانية الخالصة[٣٨]! فرد عليه غورو : « أتيت لخدمة فرنسا في سوريا ، فخدمتي لمصالح سوريا هي خدمة لدولتي »[٣٩] . وأنزل العلم في دمشق و« أخذه لورنس بحجة أنه سيوضع في متحف لندن ، كتحفة لأول علم رفع فوق سراي الحكومة »[٤٠] .

ومع أن التقسيمات الجديدة تظهر عدم رغبة الانكليز بتنصيب الأمير فيصل ملكاً على دمشق ، أو على المنطقة الشرقية التي حددتها له . وهنا بدأت المساومة بين بريطانيا والأمير سعيد في حيفا . ففاتحه الكولونيل ستانتين ، حاكم حيفا العسكري ، قائلاً : « اذا مددت يدك الى بريطانيا لتعمل معها ، فالحكومة الانكليزية ستعمل على تتويجك ملكاً على سوريا ، بدلاً من الأمير فيصل الحجازي[٤١] . وخاطبه الجنرال كلايتون « انك صاحب التاج في سوريا ،، وما الأمير فيصل الاّ غريب جاء من الحجاز وسيعود اليها ، وأنت ابن الوطن ، ومتى آن الأوان فسوف يناديك التاج »[٤٢] . فرفض الأمير سعيد ، المساومة البريطانية ، وعاد الى بيروت ، فالقت القوات البريطانية القبض عليه (أيلول ـ سبتمبر ١٩١٩) ، ونفته الى مصر ، ومنها الى باريس .

ورغم رفض الأمير سعيد للمساومة مع أي طرف من اطراف الصراع ، فقد اتسم سلوكه بالازدواجية . فحين اظهر نفسه كزعيم وطني سوري ، وتولى رئاسة الحكومة ، اعتمد في حماية دمشق على قوات « المغاربة » . فهو وطني كزعيم ، وغريب كركائز محلية .

الثورة ضد الاحتلال الفرنسي

. في تحريضه ضد الاحتلال الفرنسي ، واستنهاض همم منطقة جبال العلويين ، مزج الشيخ صالح العلي بين القومية والوطنية والدينية . فمن القول أن الاحتلال مزق وداس « أعلام الثورة العربية »، وانه يسعى الى « فصل الساحل السوري عن الوطن الأم » ، الى اظهار نواياه الخبيثة ضد العلويين « التي تستهدف ابادتهم ومحو شعائرهم »[٤٣] . واتفق مع المجتمعين في قرية « الشيخ

بدر » قضاء طرطوس ، يوم ١٩١٨/١٢/١٥ ، على كتمان الأمر ، حتى يتم « الاتصال المباشر مع عاهل الشام »[٤٤] .

وبالتزامن مع هذه التجربة ، كانت تسير تجربة « الحفّة » في جبال صهيون ، بزعامة عمر البيطار وعز الدين القسام ، وتجربة جبل الزاوية قضاء حلب ، بزعامة ابراهيم هنانو ، وكلاهما بانكفاء محلي لا يتجاوز قرى الجبل أو القضاء .

الثورات الثلاث ، حافظت على استقلالها النسبي ، في مراحلها الأولى ، ثم سرعان ما أخذت تتبادل الخبرة والتعاون والنجدات ، ولكن دون أن تصل الى مستوى تشكيل قيادة مشتركة . بل ولم تمد علاقات التنسيق الى ثورة حماة (سعيد العاصي - فوزي القاوقجي) وثورة حمص . وبقيت في اطارها العام ، محلية الطابع ، ذات تكوين عشائري وعائلي ، رغم ان عدد المقاتلين في كل منطقة تجاوز الآلاف .

ومما يسجل لثورة جبال صهيون ، انها عملت ، حتى انتهاء الثورة ، باستقلالية تحت سقف الزعامة الواسعة للشيخ صالح العلي . وانها كانت وراء الخطوات التنسيقية بين جبهات القتال . ففي معركة جسر الشغور ، التي خاضها ابراهيم هنانو ، ذهبت قوة لمساعدته « بقيادة عمر البيطار »[٤٥] . وبعد أن سحب الأمير فيصل ضباطه ، الذين أرسلهم للشيخ صالح العلي ، طلب الشيخ صالح مساعدة من ابراهيم هنانو - بواسطة الشيخ حبيب محمود وعمر البيطار - فأرسل له « أربعة ضباط كان لهم أثر ملحوظ في ادارة العمليات الحربية »[٤٦] .

وفي تجربة التحالفات خارج مناطق الثورة ، اعتمد الشيخ صالح العلي على دعم الأمير فيصل ، وعقد ابراهيم هنانو اتفاقية مع كمال اتاتورك لتزويده بالسلاح دون مقابل . وكان دعم الأمير فيصل الفعلي ، قد ابتدأ منذ منتصف تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٩ ، عندما أوفد ابن عمه « مصحوباً ببعض السلاح والذخيرة »[٤٧] ، ولم « يغفل عن ارسال القهوة ، السكر ، الملابس والماشية للمجاهدين »[٤٨] . وفي منتصف آذار (مارس) ١٩٢٠ ، أرسل الأمير فيصل « القائد الشهير غالب الشعلان لمعونة الشيخ صالح العلي في قيادة الثورة ، والاشتراك معه بتوجيهها وتنظيمها »[٤٩] .

وعاود كمال أتاتورك ، الاتصال بالشيخ صالح ، وارسل له بعض الأسلحة وأربعة ضباط الاّ أن اصرار الشيخ أن تكون العلاقة عن طريق دمشق ، دفعت أتاتورك الى قطعها والاحتفاظ بضباطه الأربعة . وما أراده اتاتورك ، من اتصاله بهنانو والشيخ صالح ، المساعدة التكتيكية لمضايقة الفرنسيين ، وقطع خطوط امدادهم في الأناضول . وعندما توصل الطرفان الى اتفاق سحب القوات الفرنسية ، تخلى أتاتورك عن كل عهوده ، وأخذت قواته تلقي القبض على المجاهدين ، وتعيدهم الى الحدود السورية ، واحياناً تسلمهم الى « السلطات الفرنسية »[٥٠] .

وبسبب سقوط الحكم الفيصلي في دمشق ، ومساومة اتاتورك وتخليه عن امداد ثورات الشمال ، وانسحاب صبحي بركات من الميدان ، شنت القوات الفرنسية ، في اذار (مارس)١٩٢١ ، هجوماً واسع النطاق ، على مراكز قيادة ابراهيم هنانو ، وانتصرت عليها . ففر هنانو الى الصحراء ، وبقي « عمر البيطار واتباعه يقاتلون الفرنسيين ، مع من تبقى من قوات هنانو »[٥١] ، وأصبحت ثورة الشيخ صالح لا مورد لها ؛ الاّ ما تستخلصه من أنياب العدو[٥٢] .

وجاء افتضاح أمر صفقة شراء السلاح من فلسطين ، التي نظمها محمد الارناؤوط ، بقيمة ٢٨٠٠ ليرة ذهبية ، ومصادرتها « بمثابة اجهاز على الثورة »[٥٣] . وبالفعل نظمت قوات الاحتلال الحملة الختامية بقيادة الجنرال نيجر ، في ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٢١ ، واستهدفت مراكز ثورة جبل العلويين وثورة جبال صهيون . وادى الاختلال الفادح في ميزان القوى ، الى السيطرة على جميع مراكز الثورة ، وتحويل الثوار الى زمر صغيرة تعمل منفردة ، دون تنسيق ودون قيادة .

وهكذا سقطت الثورة بعد ١١ شهراً من سقوط الحكم الفيصلي ، وبعد ١٠ أشهر من قرارات الجنرال غورو بتقسيم سوريا الى دويلات ، وانشاء دولة لبنان الكبير* ، وبعد ٢٢ شهراً من رفع العلم العربي على سراي دمشق .

الأمير فيصل

اختفت شخصية الأمير فيصل، في رداء دوره العسكري (قائد قوات الثورة العربية) ، وانتمائه الأسري (ابن الحسين قائد الثورة) ، ومكانته الدينية (من الاشراف .) . لذلك وجد في معاصريه ومؤرخي تجربته ، من يعفيه من مسؤولية سلوكه واتفاقاته ومواقفه . وهو رجل شديد الدهاء ، يتقن نسج الخيوط المتعاكسة في آن واحد . اذ كان يبدو أمام الاستقلاليين السوريين الرجل الاستقلالي الأول ، الذي جاء يجمع كلمتهم وأختامهم لمؤازرة والده ، في الثورة على الأتراك ؛ وأمام الأتراك رجل التفاهم مع جمال باشا ، عبر الأمير سعيد ؛ وأمام اللنبي المنظم العسكري الممتاز ؛ وأمام الانكليز الصديق بلا شروط ؛ وأمام أبيه الابن الأكثر حماساً ومقدرة لتنفيذ الدولة العربية ؛ وأمام الصهاينة رجل التفاهم ؛ وأمام الفرنسيين القائد الذكي الذي يعرف مصلحته . كل هذه الخيوط ، ليس بمقدور شخصية أخرى أن تقوم بها ، سوى الأمير فيصل عبر قدرته على التكتيك في كل مرحلة ، واستثمار العوامل المساعدة كلها ، بما في ذلك الثورة المسلحة . وتفتحت مواهبه منذ اصطحب سايكس وبيكو الى قصر بلفور . فحين عاد حقي العظم ، قال أن الأمير لا ينظر « بارتياح الى تصريح بلفور . ولكنه لا ينوي الاحتجاج على حصول اليهود على حق اقامة وطن قومي في فلسطين »[٥٤] .

وحين قابل شعب فلسطين ، البعثة الصهيونية برئاسة وايزمان في العاشر من نيسان (ابريل)١٩١٨ ، بالمظاهرات ، احتجاجاً على أهدافها المعلنة والمبطنة ، مثل تكوين فرقة البغالة اليهودية ، وشحذ « همم يهود القدس كي يضحوا بحياتهم ، ولا يتركوا البريطانيين وحدهم يفتدون البلاد بدمهم »[٥٥] . كان الجنرال كلايتون يرتب أول لقاء بين الأمير والزعيم الصهيوني . وتم اللقاء في بلدة « وهيدة »، قرب العقبة ، في الخامس من حزيران (يونيو) عام ١٩١٨ ، وكان ودياً ، وفاتحة علاقات تبلورت قبيل مؤتمر الصلح واثنائه . وليس صحيحاً ، أن مفهوم الأمير فيصل كان يشترط قيام الامبراطورية العربية ، لمنح الجيب الصهيوني في فلسطين كل الامتيازات ، ويبدو من نافلة القول انه لو فاز « الملك حسين والأمير فيصل بدولتهما العربية الكبرى لتنازلا عن فلسطين الصغيرة لليهود »[٥٦] . وهذا ما حدث في اتفاق فيصل ـ وايزمان بلندن في ٣/١/١٩١٩ .

اذ أباح الأمير لنفسه ، مصادرة التمثيل الفلسطيني ، فيما كان يتحدث رسمياً باسم الحجاز ، وعندما دخل عليه عوني عبد الهادي وأحمد قدري ، وهو مجتمع مع وايزمان ـ سوكولوف ـ هربرت صموئيل ، قال : « ان اليهود يودون تشكيل دولة يهودية في فلسطين ، فرد هربرت صموئيل : ليس ثمة من يكتب ، بل من يفكر ، بمثل هذا الاّ أن يكون خيالياً مجنوناً . ويبدو ان الأمير « اقتنع بكلام هربرت صموئيل »[٥٧] .

ونصت المادة الثالثة من اتفاق فيصل ـ وايزمان على أن « تؤخذ جميع التدابير وتعطى أفضل الضمانات لتطبيق تصريح الحكومة البريطانية الصادر في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، حين وضع دستور حكومة فلسطين » . وقيل ان الأمير أضاف « شرط أن ينال العرب استقلالهم من رفح الى طرطوس وخليج العجم »[٥٨] .

وحتى لا يترك الأمر ملتبساً ، كتب الأمير في جريدة « الجويش كرونيكل » ، لسان حال الجمعية الصهيونية في انكلترا ، مقالاً في ١٤/١٠/١٩١٩ ، جاء فيه : « حتى اذا كثر عدد اليهود في فلسطين ، تسير أن تجعل ولاية يهودية من ولايات هذه المملكة العربية »[٥٩] .

كما عقد الأمير ما سمي باتفاقية فيصل ـ كليمنصو في السادس من كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠ فقام الناس ضدها لانها تسلب الحكومة السورية كل خصائص السيادة »[٦٠] ، ورفضها المؤتمر السوري « وقرر اعلان استقلال سوريا ، ووضع الحلفاء وعصبة الأمم تجاه الأمر الواقع »[٦١] . وفي يوم تتويجه ، قالت جريدة « البرق » « ولكن التاج الذي يريده سموّه ، تنقصه جوهرتان ، هما أثمن ما في التاج ، انهما لبنان وفلسطين »[٦٢] .

ان مسألة لبنان حسمت منذ ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩ ، عندما وصل الجنرال غورو ، المندوب السامي الفرنسي في سوريا والقائد العام للجيش الشرقي بدلاً من الجنرال اللنبي ، طبقاً للاتفاق الفرنسي ـ البريطاني ، الى بيروت ، وأجمعت كل الهيئات على الترحيب به ، واستقبلته استقبالاً احتفالياً . وظهرت مؤشرات هذا الحسم في مؤتمر الصلح نفسه ، عندما رُفض الوفد الفلسطيني والوفد السوري ، وقُبل الأمير فيصل كممثل للحجاز ، وقُبل الوفد

الصهيوني ، وشارك الوفد اللبناني برئاسة داود بك عمون ، وذهب الوفد اللبناني ، مستنداً « الى قرار مجلس ادارة لبنان ، المنادي بالاستقلال السياسي والاداري للبنان ، بحدوده التاريخية والجغرافية »[٦٣] . وكانت غايته « طلب مساعدة الحكومة الفرنسية (وحدها) لأجل تحقيق أماني اللبنانيين ، وطلب ضمان الدولة الفرنسية (وحدها) لاستقلال لبنان بطريقة تحميه من كل حيف »[٦٤] .

وعلى امتداد ثلاثة أعوام ، من ١٩١٨ الى ١٩٢٠ ، نشبت معركة على صفحات الجرائد بين الاتجاه الذي مثله الوفد ، وبين الاتجاه الآخر المطالب بوحدة سوريا الطبيعية ، على قاعدة اللامركزية . ففي عام ١٩١٨ ، كتبت جريدة بيروتية : « لتكن سوريا ولايات ، ولتكن لكل ولاية حكومة من أهلها ، ولكن يجب أن تكون كلها سورية بحتة »[٦٥] .

فمن هو داود بك عمون ، الذي نافس الأمير في المساومة ؟

داود بك عمون ، ملاك عقاري من « دير القمر » في جبل لبنان . طالب بتطبيق « التجنيد الاجباري للعثمانيين غير المسلمين ، وهو في مصيفه في رمل الاسكندرية »[٦٦] . وتلقى من وكيل أراضيه في القدس ، يعلمه فيها عن سعر القيراط الذي يطلبه ، خاصة « وأن الخواجات سرسق شركانا بالأرض يتمنعون عن البيع ويطلبون سعراً عالياً »[٦٧] . عينه أوهانس قيومجيان حاكماً على جبل لبنان في ٢٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٢ ، وأصبح عضو مجلس الادارة اللبناني كنائب عن دير القمر . كان رئيس الوفد اللبناني الى مؤتمر الصلح ، وعلى رأس مستقبلي غورو حين دخل بيروت ، وقال في حضرته : « لقد نال لبنان ما رجاه وأمله »[٦٨] . وكانت جريدة « العقاب » على حق ، حين هاجمته ، مذكرة اياه بأنه « أقسم يمين الاخلاص للحكومة العربية وقبل منها منصبه الحالي »[٦٩] .

وبسبب هذا الدور ، وسيطرة القوات الفرنسية على سواحل لبنان وسوريا ، منع الجنرال نيجر ، تطبيق الانتخابات في لبنان ، لحضور المؤتمر السوري ، وكل مخالف « سيحال الى الديوان الحربي لمحاكمته »[٧٠] . وفي ١٤ تموز (يوليو) ١٩٢٠ ، أرسل الجنرال غورو ، انذاراً شفوياً حمله نوري باشا السعيد ، « وكان هذا الانذار قد أقلق الأمير والوزراء وأبقي مكتوماً »[٧١] . وفي اليوم التالي ، وصل

الانذار مكتوباً . وقبله الأمير فيصل ، وأثر على وزرائه لقبوله ، وحرض الوجهاء على قبوله ، ومع ذلك « خطب في الجامع وحرض الشعب على الاستعداد للدفاع والاستشهاد في سبيل خير الوطن »[٧٢] . وصباح ١٨ تموز (يوليو) ، اجتمع المؤتمر « وكان اكثر الأعضاء الفلسطينيين والساحليين وأعضاء جبل عامل مع بعض الدمشقيين ، مندفعين في تأييد وجوب المدافعة يتقدمهم مندوب بعلبك سعيد حيدر » ثم اقترح أحد المعتدلين « أن لا يشترك الفلسطينيون في الرأي فلم يقبل اقتراحه ». فانتصر قرار القتال . ومعروفة هي نتائج معركة ميسلون ، التي خاضها مناضلون من مختلف مناطق سوريا الطبيعية ، وعلى رأسهم وزير الدفاع يوسف العظمة . أما الأمير فقد هرب الى الكسوة ، وهناك زاره الجنرال الفرنسي تولا وأبلغه انتهاء مهمته ، وان الحكومة « تعتبره ضيفاً » وانها « عينت قطاراً خاصاً لنقله »[٧٣] .

خاتمة الثورة واختيارات قادتها

المرحلة الأخيرة في ثورات الشمال ، كانت رداً على قرارات الجنرال غورو ، بتقسيم سوريا الى دويلات . وكانت أولى الانهيارات في جبهة الاسكندرون ، حين أوقف صبحي بركات الثورة ، والقى سلاحه في أواخر ١٩٢٠ . وفسرت هذه النهاية المأساوية ، على أنها بوحي من كمال أتاتورك نفسه ، عندما عقد معاهدة سيفر مع الفرنسيين ، وضمن استقلال بلاده . ووصف صبحي بركات بالخائن ، عندما شكل الحكومة السورية عام ١٩٢٣ ، ولكنه سرعان ما هرب الى تركيا ، فاختتم مسيرته كما ابتدأها .

وفي آذار (مارس) ١٩٢١ ، وأمام الحملة الفرنسية الضخمة ، انهارت الجبهة الثانية ، جبهة جبل الزاوية وأدلب بقيادة ابراهيم هنانو . ولم يغادر هنانو المنطقة الا في حزيران (يونيو) ، وبلغ العاصمة الأردنية في ٣١ تموز (يوليو) . وهناك حمّله الأمير عبد الله ، رسالة من المعتمد البريطاني في عمان ابرامسون ، الى المندوب السامي هربرت صموئيل ، هي في جوهرها رسالة تسليمه . وفعلاً ، بفندقة في القدس ، القت قوات الاحتلال البريطاني القبض عليه ، وسلمته مخفوراً الى الفرنسيين .

الجبهة الأخيرة ، جبهة جبال العلويين وجبال صهيون ، سقطت أمام

الحملة الفرنسية ، التي قادها الجنرال نيجر ، في منتصف حزيران (يونيو) ١٩٢١ . واختار الشيخ صالح العلي ، البقاء في المنطقة متنكراً ، لمدة عام كامل . ولم تنجح الحملات التفتيشية الواسعة ، وحكم الاعدام ، والوعد بجائزة مائة ألف فرنك فرنسي لمن يرشد الى مكانه ، من القاء القبض عليه ، رغم أنه كان يسير على الطرقات ، ويحادث الجنود ، ويصلي في المساجد . ومن تلقاء نفسه استسلم ، وقال للجنرال بيلوت في اللاذقية « والله ، لو بقي معي عشرة رجال ، مجهزين بالسلاح والعتاد ، لما تركت ساحة القتال »[٧٤] . فبلعها الجنرال الفرنسي طامعاً في اقناعه بالمشاركة في الحكم . ولكن الشيخ رفض عرض المشاركة مستشهداً بالآية القرآنية « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار »[٧٥] . فأصدر الجنرال قراراً بالزامه الاقامة الجبرية في بيته .

أما قادة ثورة جبال صهيون ، فانقسموا قسمين : الأول قاده عمر البيطار ، والتجأ الى تركيا ، وقاتل في « حروب كردستان ضد الانكليز »[٧٦] ، والثاني قاده الشيخ عز الدين القسام والتجأ الى فلسطين .

وعيّن الشيخ عبد المالك مصطفى القسام ، أحد الذين شاركوا عز الدين القسام في رحلته الى فلسطين ، نقطة البداية من جسر الشغور ، مع ستة من أتباعه هم الشيخ أحمد ادريس ، الحاج علي عبيد ، الشيخ محمد حنفي ، الحاج خالد ، ظافر القسام وعبد المالك القسام[*] . وبقيت زوجته أمينة نعنوع ، التي شاركته تجربة الثورة كلها ، مع أولاده في قرية « الحفّة » .

قطعت المجموعة غالبية المسافة بين جسر الشغور وبيروت ، مشياً على الأقدام ، معتمدة على التنكر . واقامت في بيروت ، في الجامع العمري بمساعدة الحاج خليل سكر . ومن الجامع العمري الى دمشق ، رتب الشيخ عز الدين القسام ، زيارة سرية خاطفة ، التقى فيها بزميل دراسته في الأزهر عز الدين بك التنوخي ، الذي زوده بجواز سفر مرور .

لم تدم اقامتهم طويلاً في بيروت ، خاصة وان حكم الاعدام غيابياً قد صدر بحق الشيخ عز الدين القسام والشيخ أحمد ادريس . ونظم الحاج خليل سكر ، أمر نقلهم بسرية تامة ، من بيروت الى صيدا ، عبر حنطور قاده أحد القبضايات . وفي صيدا كان ينتظرهم قارب صغير ، نقل المجموعة بحراً الى عكا .

في عكا ، قرر الشيخ أحمد ادريس ** العودة ، لخلاف نشب بينه وبين الشيخ القسام ، بسبب اسلوبه في المناقشة المعتمد على يده ، في تعامله مع زملائه .

وانتقلت المجموعة ، بدون الشيخ أحمد ادريس من عكا الى حيفا ، وصادف وصولها عصر يوم جمعة ، وأدت صلاة المغرب في جامع الجرينه ، حيث تطوع الشيخ عز الدين القسام ، وقدم درساً ، لفت انظار الحضور اليه ، وبدأت الأسئلة تدور حوله ، وغادر المصلون المسجد ، وبقي الشيخ مع مجموعته ، فاستفسرهم الحاج عبد الله مسمار ، عما يفعلونه ، لأنه سيغلق المسجد ويعود الى بيته . ويبدو أن الحاج عبدالله ، كان قيّم المسجد ، وسمساراً للمساكن ، اذ يحمل رزمةً من المفاتيح ، أعطى القسام وجماعته شقة من غرفتين بدون أغطية . وليلتها نام الجميع على الحصيرة ، والتحف الشيخ جبته[٧٧] .

وبعد شهرين من الاقامة ، خسرت المجموعة شخصاً ثانياً هو الحاج خالد ، من جبال صهيون . الذي أصر على العودة الى بلدته ، ومن هناك يمكنه التبرع بعائدات عمله الى حركة الشيخ . وعاد الحاج خالد فعلاً ، والقت القوات الفرنسية القبض عليه ، وهو في أطراف قرية « جبلة »، فأعدم بطريقة بشعة . إذ جمع الفرنسيون سكان القرى ، وسكبوا الكاز على الحاج خالد ، وأحرقوه حياً أمامهم[٧٨] .

ولاحقاً جرى تأمين نقل عائلة الشيخ عز الدين القسام الى حيفا ، عن طريق سائق في بيروت ، رتب ادخال العائلة في جواز سفره[٧٩] . والمرجح أن وصول الشيخ الى حيفا ، كان في أواخر صيف عام ١٩٢١ ، ولكنه لم يبدأ حياته المهنية الاّ في العام اللاحق ، حيث تبدأ مرحلة نضال جديدة .

(١) عبد العزيز محمد عوض ، **الادارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤ ـ ١٩١٤** ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٩ ، الفصل الثامن « نظام الأرض والزراعة » .

(٢) أ . ن . بولياك ، **الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان** (ترجمة عاطف كرم) ، بيروت : دار المكشوف ، الطبعة الأولى ، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨ ، ص١٤٥ .

(٣) م . غودفروا ، **النظم الاسلامية** (ترجمة د . فيصل السامر ود . صالح الشماع) بيروت : دار النشر للجامعيين ، أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ ، ص٢٠٨ .

(٤) بوعلي ياسين ، **حكاية الأرض والفلاح السوري ١٨٥٨ ـ ١٩٧٩** ، بيروت : دار الحقائق ، الطبعة الأولى ، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٩ ، ص١٥ . عن عبدالله حنا ، **القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سوريا ولبنان** ، بيروت : دار الفارابي ، ١٩٧٥ ، ص١٧ .

(٥) الحاج محمد عز الدين القسام ، **مقابلة شخصية** ، دمشق ـ حي التقدم ، في ١٩٨١/١٢/٤ .

(٦) الشيخ عبد المالك مصطفى القسام ، **مقابلة شخصية ، بلدة « جبلة » ، في ١٩٨١/١٢/٦** .

(٧) **ذاكرة مشتركة للحاج محمد والشيخ عبد المالك والشيخ « محمد أديب » فخر الدين القسام .**

(٨) **د . صالح رمضان ، حركة التحرر العربية ،** عدن : مؤسسة ١٤ اكتوبر ، ١٩٧٧ ، ص٢٢ .

(*) قال الشيخ رفاعه الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) ، في كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » ، ان العمل « يصون المرأة ، عمّالا يليق ، ويقربها من الفضيلة » . ودعا المرأة ، عند اقتضاء الحال « أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال ، **على قدر قدرتها وطاقتها** » .

وحض النساء على التعلم ليشاركن الرجال في « الكلام والرأي ». وبذلك استحق لقب أول داعية لتحرير المرأة في القرن التاسع عشر ، في مصر .

(٩) د . عفت محمد الشرقاوي ، **الفكر الديني في مواجهة العصر** ، بيروت : دار العودة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩ ، ص ٢١١ . عن جريدة المنار ، الجزء ٨ ، ص١٠٢ .

(١٠) صلاح عيسى ، **البورجوازية المصرية وأسلوب المفاوضة** ، بيروت : دار ابن خلدون ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩ ، ص٩٨ .

(١١) محمد عز الدين القسام ، **مقابلة شخصية** ، دمشق - حي التقدم ، في ٤/١٢/١٩٨١ ، وصادق على القصة « محمد أديب » فخر الدين القسام ، وعبد المالك ومصطفى القسام .

(١٢) زهير المارديني ، **الف يوم مع الحاج أمين** ، دار العرفان ، الطبعة الأولى ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ ، ص ٨٢ .

(١٣) **المصدر نفسه** ، ص٨٢ .

(١٤) عبد المالك مصطفى القسام ، **مصدر سبق ذكره** ، وكان عبد المالك طفلاً ، وشارك في التظاهرة .

(١٥) زهير المارديني ، **مصدر سبق ذكره** ، ص٨٢ .

(١٦) أمين سعيد ، **ثورات العرب في القرن العشرين** ، القاهرة : دار الهلال ، بلا تاريخ ، ص ١١٧ .

(١٧) أدهم الجندي ، **تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي** ، **دمشق مطبعة الاتحاد** ، ١٩٦٠ ، ص ٢٤ .

(١٨) **المصدر نفسه** ، ص ٢٤ .

(١٩) عبد المالك مصطفى القسام ، **مصدر سبق ذكره** .

(٢٠) عبد اللطيف يونس ، **ثورة الشيخ صالح**

العلي ، دمشق : دار اليقظة العربية ، بلا تاريخ ، ص٥٨ .

(٢١) **المصدر نفسه** ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٢٢) أدهم الجندي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٦ .

(٢٣) أمين سعيد ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥٦ .

(٢٤) عبد الله بن الحسين ، **حقبة من تاريخ الأردن** ، بيروت : الدار المتحدة للنشر ، ١٩٧٣ ، ص ١٦ .

(٢٥) أنور الرفاعي ، **جهاد نصف قرن لسمو الأمير سعيد آل عبد القادر الجزائري** ، **دمشق** : المطبعة العمومية ، ١٩٤٨ ، ص ٥٨و٥٩ .

(٢٦) **المصدر نفسه** ، ص٧٩ .

(٢٧) د . أسعد رزوق ، **اسرائيل الكبرى** ، بيروت : مركز الأبحاث في م . ت . ف . الطبعة الثانية ، تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، ص ٣٦٩ .

(٢٨) عبد اللطيف يونس ، **مصدر سبق ذكره** ، ص٢٨ .

(٢٩) **المصدر نفسه** ، ص ٢٨ .

(٣٠) لجنة بيل ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٤ .

(٣١) **المصدر نفسه** ، ص ٢٦ .

(٣٢) **المصدر نفسه** ، ص٢٦ .

(٣٣) د . أسعد رزوق ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٦٧ : **جورج انطونيوس** ، **يقظة العرب** ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٢ ، ص ٣٧٧ : جريدة **القبلة** ، العدد ١٨٢ ، ٣ آذار (مارس) ١٩١٨ .

(٣٤) المقدم الركن جودت أتاسي ، **الحرب الشعبية** ، دمشق : الأركان العامة ، حزيران (يونيو) ١٩٥٦ ، ص ٥٤ .

(*) « محمد سعيد » ، اسم مركب اعتمد شقه الثاني . وهو الأمير سعيد بن الأمير علي باشا بن عبد القادر الجزائري الحسني ، الذي ينسب الى فرع الحسن بن علي بن أبي طالب . وهو من مواليد دمشق سنة ١٨٨٢م ، وكذلك أبوه الأمير علي ، فيما ينسب فرع الهاشميين الى الحسين بن علي بن أبي طالب ، فهم أبناء عمومة ويلقبون بالأشراف .

(٣٥) أنور الرفاعي . **مصدر سبق ذكره** ، ص ٩٩ .

(٣٦) محمد جميل بيهم . **العهد المخضرم في سوريا ولبنان ١٩١٨ ـ ١٩٢٢** ، بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٨ ، ص ٥٤ .

(٣٧) أنور الرفاعي . **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٢٠ و ١٢١ : منيب الماضي وسليمان موسى . **تاريخ الأردن في القرن العشرين** . الطبعة الأولى ، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٩ ، ص ٨٣ .

(٣٨) مجلة **المرآة (القاهرة) ، السنة الثالثة . الجزءان ١٣و ١٤ ، ١٥ ـ ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٩** .

(٣٩) **المصدر نفسه** .

(٤٠) أنور الرفاعي . **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٢٣ .

(٤١) **المصدر نفسه** ، ص ١٣٢ .

(٤٢) **المصدر نفسه** ، ص ١٢٨ .

(٤٣) **عبد اللطيف يونس** ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٠٥ .

(٤٤) **المصدر نفسه** ، ص ١٠٦ .

(٤٥) النقيب سليمان محمود السبعاوي ، **تاريخ النضال الشعبي في الأقليم السوري** ، دمشق : الطبعة الثانية ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٥ .

(٤٦) عبد اللطيف يونس . **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٨٧ .

(٤٧) **المصدر نفسه** . ص ١٢٣ .

(٤٨) **المصدر نفسه** . ص ١٢٤ .

(٤٩) **المصدر نفسه** ، ١٢٩ .

(٥٠) **المصدر نفسه** ، ص ٥٩ .

(٥١) أدهم الجندي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٨ .

(٥٢) عبد اللطيف يونس ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٠٩ .

(٥٣) السبعاوي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٩١ .

(*) اصدر الجنرال غورو ، بتاريخ ٣١/٨/١٩٢٠ ، قراراً بانشاء دولة لبنان الكبير ، وأضاف لها أربعة أقضية كانت تابعة لولاية سوريا ، وهي :: البقاع ، بعلبك ، حاصبيا ، وراشيا . وقسم سوريا الى أربع دول : دولة دمشق ، دولة جبل العلويين ، دولة جبل الدروز ، دولة حلب ويتبعها سنجق الاسكندرونة على أن يمنح ادارة ذاتية منفصلة .

(٥٤) د . كامل محمود خله ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٠٨ .

(٥٥) د . أسعد رزوق ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٧٦ .

(٥٦) لجنة بيل ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٧ .

(٥٧) بيان نويهض الحوت ، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٨** ، رسالة دكتوراة ، (باشراف أنيس صايغ) بيروت : الجامعة اللبنانية ، كلية الحقوق والعلوم السياسية والادارية ١٩٧٧ ، ص ١١٩ .

(٥٨) عيسى السفري ، **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية** ، يافا : مطبعة مكتبة فلسطين الجديدة ، ١٩٣٧ ، ص١٤ .

(٥٩) **المصدر نفسه** ، ص ١٦ .

(٦٠) عبدالله بن الحسين ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٥ .

(٦١) عبد اللطيف يونس ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٨ .

(٦٢) **المصدر نفسه** ، ص ٤٠ .

(٦٣) جريدة **البرق** (بيروت) (صاحبها ورئيس تحريرها بشارة الخوري) ، الاثنين ، ٨ آذار (مارس) ١٩٢٠ .

(٦٤) **المصدر نفسه** ، ٢٠ حزيران (يونيو) ١٩١٩

(٦٥) **المستقبل** ، (باريس) ، العدد ١٢٤ ، ١٠ ، شباط (فبراير) ١٩١٩ .

(٦٦ **مرآة الغرب** ، (بيروت) ، ٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٨ .

(٦٧) **المقطم** (القاهرة) ، الخميس ٢٨ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٠٩ .

(٦٨) رسالة خطية بحوزة المؤلف .

(٦٩) **المرآة** ، (القاهرة) ١٥ ـ ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٩ .

(٧٠) **العقاب** (دمشق) (دمشق) ٣ حزيران (يونيو) ١٩١٩ .

(٧١) **البرق** ، ٢٤ حزيران (يونيو) ١٩٢٠ .

(٧٢) **فتى لبنان** (سان باولو ـ البرازيل) ١٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٠ .

(٧٣) **المصدر نفسه** .

(٧٤) **المصدر نفسه** .

(٧٥) **المصدر نفسه** .

(٧٦) عبد اللطيف يونس ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٢٧ .

(٧٧) **المصدر نفسه** ، ص ٢٢٧ .

(٧٨) أدهم الجندي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٥ .

(*) صادق الحاج محمد عز الدين القسام على ذلك ، مقابلة شخصية ، **مرجع سابق** .

(**) الشيخ أحمد ادريس : من مواليد الزنكوفة عام ١٨٨٥ ، ومن الاتباع الخلص للشيخ عز الدين القسام . شارك في قيادة ثورة جبال صهيون منذ بدايتها حتى النهاية . وعندما عاد من عكا الى شمال سوريا ، نزح الى تركيا ، وقاتل مع عمر البيطار في كردستان لمدة سنة ونصف . حكم عليه بالاعدام ونهب بيته ونسف . رجع الى سوريا بالعفو العام ، وسجن ما بين ؟!ظ ـ ١٩٤٣ ، وظل أمام قريته وخطيبها .

(٧٩) عبد المالك القسام ، **مصدر سبق ذكره** .

(٨٠) ذاكرة مشتركة لعبد المالك ومحمد عز الدين القسام و « محمد أديب » فخر الدين القسام .

الفصل الثاني

تجربة جامع الاستقلال

١٩٢٢ ـ ١٩٣٥

تُنسب فترة وجود الشيخ عز الدين القسام في فلسطين ، منذ وصوله الى حيفا ، في صيف ١٩٢١ ، وحتى معركة استشهاده في خرابة الشيخ زيد ، في خريف ١٩٣٥ ، الى أكثر أماكن عمله شهرة وشعبية ونعني بذلك جامع الاستقلال . ونظراً لطابع شخصية القسام التي تُقدِّم النموذج بنفسها ، في القول والعمل ، في الأفكار والممارسة ، وبسبب خطبه وأقواله الداعية دوماً الى الجهاد ، تحوّل جامع الاستقلال من مكان تقليدي للعبادة ، الى مدرسة للوطنية ، تربى فيها صف واسع من عمال السكك الحديدية وعمال البحر والحجارة في حيفا ، ومن فلاحي الشمال المقتلعين من أراضيهم والمقيمين عليها . وهنا ، تجدر الاشارة الى نقطة جديدة تجاهلها كل التاريخ المكتوب عن القسام ، في المقالات والدراسات والكتب والرسائل الجامعية . وهي أن اتباع القسام كانوا ينظرون اليه ، منذ وصوله الى حيفا ، باعتباره شيخهم ونموذجهم وأمين صندوقهم في حركتهم الجهادية . ولأنه لم يكن صاحب طريقة صوفية ، وانما صاحب قضية سياسية الثورة ضد الاستعمار ، فان تبعية زملائه السوريين القادمين معه ، رغم مظهرها الديني الكامل ، كانت في الجوهر تبعية سياسية ، خاصة وأنهم جميعاً ، جاؤوا من مواقع الثوار في الشمال السوري ، لا من زوايا الدراويش وحلقات الذكر . والوجه الآخر ، لهذا العمل التنظيمي الجنيني ، تجسد عند القسام في احتراف العمل السياسي السري ، فأعطى وقته كله للتنظيم والثورة . ومرت سنوات على عز الدين القسام ، ويومه يبدأ من الفجر ولا ينتهي الا في الساعات الأخيرة من الليل . يبدأ بعد صلاة الفجر فيعطي دروس محو الأمية والدروس الجهادية للعمال الأميين في مدرسة البرج الاسلامية أو في المسجد نفسه ، ويصرف وقته ، منذ الصباح حتى صلاة الظهر ، في الاتصال الحي بالناس في مواقع عملهم وجلوسهم ، ويعود ظهراً الى بيته ومعه ، على الأغلب ، بعض المجندين في المسجد لمناقشتهم ، ويمضي فترة العصر في تقديم الدروس الجهادية ، وفي المساء يصرف بعض الوقت في جبل الكرمل وهو يدرب الحلقات على استخدام السلاح ، ويعود الى بيته ليقطع الوقت في حوار ساخن ومتشعب مع مناضلين جاؤوا للمبيت عنده . هكذا عاش في الثورة واستشهد في سبيلها ، فقدم للناس النموذج المفقود في الجمعيات والمؤتمرات والأحزاب .

وهناك مرحلة قصيرة في حياة القسام ، قفز فوقها التاريخ المكتوب عنه ، بسبب غيابها في الكتابات التأسيسية ، وهي عمله كمدرس في مدرسة البرج الإسلامية ، منذ تأسيسها عام ١٩٢٢ ، وحتى توليه الإمامة في جامع الاستقلال ، منذ تأسيسه عام ١٩٢٥ . وعلى قصرها ، فقد كانت هذه المرحلة الأرض ـ الجسر التي ربطت القسام بالجيل الجديد ، وبالأوساط الشعبية الفقيرة ، وأتاحت له التعرف على أشكال اللعبة السياسية الشرعية في المدينة ورموزها . وبالقدر ذاته من الزمن (٣ سنوات) ، اختبر القسام تجربة العمل العلني ١٩٢٨ ـ ١٩٣١ ، في جمعية الشبان المسلمين ؛ وذلك عندما وصلت سياسة المؤتمرات العربية الفلسطينية الى سقفها المسدود في المؤتمر السابع . حينها ، وفي ظل الكساد السياسي ، « أصبحت جمعيات الشبان المسلمين تستقطب الوطنيين »[1] . ففي الانتخابات التأسيسية عام ١٩٢٨ ، فاز برئاسة الجمعية : في حيفا الشيخ عز الدين القسام ؛ في غزة حمدي الحسيني ؛ في نابلس محمد عزة دروزة وفي صفورية الشيخ محمد سعيد عبد المعطي (أبو العبد) وكان « قسامياً »[2] ، ومن بين الهيئة المركزية لحزب الاستقلال (١١ عضواً) الذي تأسس عام ١٩٣٢ ، شارك سبعة أشخاص في مؤتمر الأندية الإسلامية وجمعيات الشبان المسلمين عام ١٩٢٨ وهم : عوني عبد الهادي (القدس) ، عجاج نويهض (القدس) ، رشيد الحاج ابراهيم (حيفا) ، محمد عزة دروزة (نابلس) ، حمدي الحسيني (غزة) ، أكرم زعيتر (عكا) وفهمي العبوشي (جنين) .

هذا الاندفاع ، لم يكن بمقدورة ، استناداً الى الأشكال التي اتخذها ، أن يؤسس الحركة الوطنية الجذرية البديلة . فالجمعيات ، في قانونها ، هي أقرب الى النوادي منها الى الهيئات السياسية ، عدا عن كونها تحظر النشاط السياسي ، وتستهدف ـ بنظر العناصر اليمينية والاصلاحية ـ جذب « الموظفين المسلمين »، اسوة بما فعلته جمعيات الشبان المسيحيين ! والغرض الوحيدالذي حققته ، أنها كانت واجهة غطت على عجز « اللجنة التنفيذية »، ومهدت لميلاد الأحزاب .

وفي مرحلة تأسيس الأحزاب ١٩٣٢ ـ ١٩٣٥ ، كان الشيخ عز الدين القسام يعطي كل وقته ، لتهيئة حركته السرية المسلحة ، حتى تتمكن من تفجير الانتفاضة في حيفا وجنين ، واعلان الكفاح المسلح ضد الانتداب البريطاني واداته

المحلية الصهيونية . وكان طبيعياً أن يرحب القسام بالاكتشاف المتأخر لحزب « الاستقلال » والذي يرى أن التناقض الرئيسي هو بين الحركة الوطنية والانتداب البريطاني . لأن هذا الاكتشاف قرّب الاستقلاليين من المقولة القسامية في العشرينات : « بريطانيا رأس الداء والبلاء » . والثابت تاريخياً ، أن حزب الاستقلال ـ باختياره ـ قد حصر نفسه في مهمة فكرية واحدة وهي : توجيه الأنظار ودفع الحركة الوطنية الوطنية الى الخطر الرئيسي « الانتداب » وليس الى فرعه « الصهيونية »، من خلال البيانات والخطب والمذكرات . ولم يتقدم الحزب خطوة واحدة على أساليب الحركة التقليدية التي سبقته الى العنف الجماهيري ، في انتفاضة تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٣ . كما لم تسجل تجربته القصيرة أية محاولة لتنظيم الجماهير ودعوتها الى الثورة المسلحة ، فقد ظل الحزب يمسك بالنقيضين معاً : اكتشاف الخطر الرئيسي واعتماد الأساليب الشرعية التقليدية في مناهضته .

وفي المقابل ، لا يستدل من حياة القسام وحركته السرية أية مراهنة ، مهما كانت متواضعة ، على الأدوات النضالية التي اختبرتها القيادة التقليدية في تجربة الجمعيات الإسلامية ـ المسيحية ، والمؤتمرات الفلسطينية وأخيراً الأحزاب ، ولا على أساليبها الشرعية في اطار الانتداب . فطريق القسام ، كان يختلف جذرياً ، مع الحركة الوطنية الفلسطينية ، بجناحيها الإصلاحي والرجعي .

مدرسة البرج الإسلامية ١٩٢٢ ـ ١٩٢٥

منذ وصوله في صيف ١٩٢١ ، وحتى افتتاح « مدرسة البرج الإسلامية »، عام ١٩٢٢ ، لم يمارس الشيخ عز الدين القسام عملاً في مدينة حيفا . وانما كان وأتباعه يعيشون ، مثلهم مثل عشرات المناضلين ، على دعم أهالي المدينة وضيافتهم . ولفترة من الوقت استضيف في منزل عبد الفتاح الخطيب[٣] . وكان يتردد عليه الشيخ محمد حنفي* . ثم سكن في بيت الحاج عبد الواحد الحسن الملقب بالمسمار ، في حارة اليهود** ، حين جاءت زوجته وأولاده .

دعته « الجمعية الإسلامية » في حيفا ، المشرفة على اوقاف المدينة « بصورة مستقلة ومنفصلة عن الأوقاف في القدس »[٤] ، الى التدريس في مدرستين للاناث والذكور ، « فدرس أولاً في مدرسة الإناث الإسلامية ، ودّرس

ثانياً في مدرسة البرج الإسلامية »[٥] . وكان متوسط اجره الشهري « ما بين ٤ ـ ٥ جنيهات »[٦] .

وحرص القسام ، استناداً الى أقوال تلاميذه في مدرسة البرج ، على أن يلفت نظر الطلاب ، الى الدور المستقبلي الذي ينتظرهم . فكان يسأل الطلاب عما يريدون أن يكونوا في المستقبل . « وكان الطلاب يتيمنون بمهن آبائهم الا واحداً قال انه يريد أن يصبح قائداً مسلماً يعمل في سبيل الله والوطن . فشجعه الشيخ حتى لفت نظرنا ، وبتنا نعتقد أنه من دعاة هذا الخط والسبيل »[٧] .

كان قليل الكلام ، هادئاً لا يستخدم العنف في تدريسه « على خلاف طرائق المعلمين في زمنه . كان يحمل عصاً لكنه لا يضرب بها »[٨] .

كما جرب القسام المسرح المدرسي لتقريب الطلاب من فكرته حول قادة الجهاد . ففي نهاية كل سنة ، كما يذكر ابراهيم السهلي ، « كنا نمثل رواية . ومثّلتُ في رواية صلاح الدين الأيوبي . وما زلت اذكر صرخة زوجة رئيس الحامية في حطين وإسلاماه ، وقول صلاح الدين عندما جاءه الخبر ايه حطين سترين العجب ! »[٩] .

وفي عام ١٩٢٤ ، ضمنت « الجمعية الإسلامية » المدرسة الى الشيخ السوري كامل القصاب « فتصرف بمنطق تجاري ؛ اذ أخرج الأيتام والفقراء ، الذين كانوا يتعلمون مجاناً ، تحت شعار من لا يدفع لا يتعلم »[١٠] . ورداً على ذلك ، قامت مظاهرة في حيفا تستنكر طرد أبناء الفقراء « وتأسست مدرسة خيرية شارك فيها حسن شبلاق ود . سعيد عودة ومحمد علي دلّول »[١] .

وروى حسن شبلاق ما حدث معه آنذاك ، بأنه فيما كان عائداً من عمله ، شاهد الناس يحتشدون ويهتفوق غاضبين . وفوّضوه مع محمد عمورة بمقابلة « الجمعية الإسلامية »، في محاولة لإقناعها بالعدول عن قرار تضمين المدرسة للشيخ كامل القصاب . وعن المقابلة يقول شبلاق : « عندما دخلنا مقر الجمعية ، كان هناك رئيسها الحاج خليل طه ، المليونير المعروف ؛ ورشيد الحاج ابراهيم الوجيه والتاجر ؛ والشيخ كامل القصاب ، الوجيه والتاجر السوري .

« سألني الحاج خليل طه : ايش في يا أبو نايف ؟ !

« فقلت : بدنا نشوف مشكلة المدرسة .
« فرد رشيد الحاج ابراهيم : احنا اللي بدنا اياه بنسويه .
« قلت : بس اطّلع من الشباك وشوف العالم برّا !
« رد الشيخ كامل القصاب : أنا متعهد !
« فأجبته : اذا المسألة مقاولات وأنا متعهد . احنا بدنا نرجّع المدرسة للجمعية لأنه في أولاد فقرا بدهم يتعلموا »[١٢] .

ولم تنجح وساطة حسن شبلاق ومحمد عمورة ، واضطر الناس للبحث عن سبيل آخر ، فتداعوا الى تشكيل « جمعية التعليم والارشاد الإسلامية » .

وتكونت الجمعية من الدكتور السوري سعيد محمد عودة (أمين السر) . والدكتور طه خليل طه (أمين المال) وهو ابن الحاج خليل طه ؛ ومن اعضاء مجلس الادارة وهم : الشيخ أحمد رمضان ، الشيخ أحمد الصلح ، حسن شبلاق ، مصباح شقيفي ، أحمد البربير ، حسين الأكحل ، داود زعبلاوي ، نعيم أبو شام ، محمد شبلاق ، مصطفى سنو . وتكون الجهاز التعليمي والاداري للمدرسة من عبد الرحيم عنبتاوي (مدير المدرسة) ، وتحسين عبد الهادي (معلم) والشيخ شريف يحي النصر (معلم) ويوسف عبد الهادي (آذن المدرسة)*[١٣] .

لم يغادر الشيخ عز الدين القسام المدرسة « عندما تولاها الشيخ كامل القصاب »[١٤] ، فعمل سنة أخرى ، واختلف مع القصاب عام ١٩٢٥ « في المنهج »[١٥] ، واستقال . وفي السنة ذاتها أخذ وظيفتي « امام جامع الاستقلال ومأذون شرعي للعقد والنكاح »[١٦] .

ويبدو أن فردية الشيخ كامل القصاب وتسلطه الديكتاتوري من جهة ، واعتداده بنفسه الى حد الغرور في مختلف مجالات المعرفة والحياة من جهة أخرى ، دفعاه ، لأن يصطدم مع معظم الهيئة التدريسية . فاختلف مع الشيخ عز الدين القسام وهاني أبو مصلح** (لبناني) وعبدالله تيمور وعبدالله الخطيب ؛ اذ احتج هؤلاء على فردية القصاب في اتخاذ القرارات والتخطيط ورفض القسام منهجه المعتمد على العنف في معاقبة الطلاب ، ورفض عبدالله تيمور الانصياع لرأيه في الحركة الكشفية الداعي الى الغائها . ولم يبق مع القصاب سوى رشيد

بقدونس* (سوري) ، عضو المجمع العلمي في دمشق وكان « ضعيف الشخصية ، ولا يكاد يضبط الصف ، ولكنه كان عالماً ، وله مؤلفات في التاريخ والجغرافيا ، بالاضافة الى قاموس عسكري »[١٧] ؛ وسعيد الحاج ابراهيم ، وهو « ابن أخ رشيد الحاج ابراهيم وكان يعلم الانكليزي والمحفوظات والاملاء لست سنوات »[١٨]** .

جامع الاستقلال ١٩٢٥ ـ ١٩٣٥

تولى الشيخ عز الدين القسام الإمامة في جامع الاستقلال*** منذ تأسيسه عام ١٩٢٥ ، عن طريق « الجمعية الإسلامية » في مدينة حيفا ، وليس للمجلس الإسلامي وللحاج أمين أية علاقة بهذا التعيين . وبسنوات قليلة ، أصبح المسجد ، من أكثر مساجد المدينة شهرة ويؤمه المصلون من مختلف انحاء القضاء . ولم يكن القسام مجرد واعظ يرشد الناس الى فروض الطاعة وقصص الأقدمين ، بل كان أبرز الأئمة بعداً عن التزمت المغرق بالصوفية أو الرجعية ، وأكثرهم يسراً في مزج العبادة بالواجب الوطني . وغدت دروسه ، بعد صلاة العصر وخطب يوم الجمعة ، مدرسة تتسع لأبناء الريف والمدينة ، وحلقة من حلقات التثقيف بالمسؤولية ازاء الاستعمار . وكانت بنظر الكثيرين من مريديه ، اعلان رأي الدين في ما يجري من شؤون السياسة والحياة ، وتحديد الموقف الحق أمام المؤمن الحقيقي . فعلى خلاف غالبية الأئمة ، لم يستخدم القسام منبر خطبة الجمعة ، للهروب مما يجابهه الشعب في معركته الوطنية ، الى طقوس العبادة . بل ، على العكس تماماً ، استثمر المنبر المفتوح ، لأكثر الأحاديث جرأة في التحريض والتعبئة ، وحض المؤمنين على القتال ، حتى استحق ، بجدارة ، لقب « داعية للجهاد » .

وللوقوف على حقيقة هذا الدور ، في خطب الجمعة ودروس ما بعد صلاة العصر ، لا تستقيم قراءة القسام الا في ضوء شخصيته القيادية المتكاملة ، الشخصية التي تمزج مزجاً فاعلاً وحياً بين الدعوة الثورية وبين الممارسة الثورية ، حتى تغدو « مدرسة جامع الاستقلال » حقيقة ملموسة ، لا افتراضات ذهنية . وفي هذا الاطار ، استخدم الشيخ عز الدين القسام عمله ، كإمام في جامع الاستقلال ، لتحقيق ثلاثة أهداف في آن واحد : التحريض ، التنظيم والتدريب .

١ ـ التحريض

حذّر الشيخ عز الدين القسام المصلين ، في احدى خطب الجمعة عام ١٩٢٧ ، من التساهل مع الهجرة اليهودية « التي تحتل البلاد وأنتم فيها »[١٩] . ودعاهم الى استقبال هذا العدو ، القادم بعربات الانتداب البريطاني وحمايته « كعدو لا كمهاجر أو ضيف »[٢٠] . ثم خاطب المصلين محاولاً استثارة حماستهم :« ألا تخجلون أن تكون لحية الكلب أطهر من لحاكم في يوم من الأيام عند الله ؟ »[٢١] . « اجمعوا انفسكم واذهبوا الى نجع عرب ، فاذا سمحوا للكلب نكون كالكلب ، واذا منعوه ، فتكون فيهم الشهامة والرجولة لمنع الكلاب من تدنيس حرمات بيوتهم »[٢٢] . وفسّر الكثيرون دعوة القسام هذه ، على أنها مبالغة لاستثارة همم الشباب ، وسخروا من قوله بأن « اليهود ينتظرون الفرصة لافناء شعب فلسطين والسيطرة على البلد وتأسيس دولتهم »[٢٣] .

وفي أواخر عام ١٩٣٤ ، سأل القسام المصلين جهاراً : « هل أنتم مؤمنون ؟ » وأجاب : « لا أعتقد ! » ، وسكت قليلاً ، فسرت ضجة وهمهمة ؛ والأنظار كلها مشدودة نحوه ، تواقة لسماع تفسيره : « لأنه لو كنتم مؤمنين لكانت عندكم عزة المؤمن . فإذا خرجتم من هذا المسجد وناداكم جندي بريطاني فستهرولون نحوه »[٢٤] .

وعلى لسان الناس ، أصبحت أقواله تتردد في المسجد ؛ وهي أقوال تدعو ، جميعها ، الى الجهاد مثل : « الجهاد رفيقه الحرمان »[٢٥] ، « المجاهد رائد قومه والرائد لا يكذب أهله »[٢٦] ، « يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال »[٢٧] ، « لقد فضّل الله المجاهدين على القاعدين درجة »[٢٨]) ، « أيها الرجال ! يا نساء وشباب فلسطين ! البلاد في خطر »[٢٩] . وبذلك كان « أكثر المشايخ تطرقاً لضرورة الجهاد ، ولمنع الصهيونية من أن تحقق أحلامها في بناء وطن قومي على أرض فلسطين »[٣٠] .

ولم تكن دعوته للجهاد معزولة عن مجمل أفكاره ومواقفه . فمن خلالها ، انتقل من التلميح الى التصريح في نقد الظواهر السلبية دينياً ووطنياً ، وفي الافصاح عن منهجه في العمل ، من خلال تقديم النموذج بنفسه . ولأنه لا ثورة بدون أسلحة ، هاجم القسام سياسة المجلس الإسلامي الأعلى في تزيين المساجد

وبناء الفنادق وقال : « يجب أن تتحول الجواهر والزينة في المساجد الى أسلحة ، فاذا خسرتم أرضكم كيف ستنفعكم الزينة وهي على الجدران ؟ »[٣١] . وكانت موازنة الأوقاف حينها « تزيد عن نصف مليون جنيه من الجنيهات الاسترلينية التي كان بالامكان تسليح خمسة آلاف مقاتل بها »[٣٢] . ودعا مرة المسلمين الى تأجيل الحج ، وتحويل نفقاته الى شراء الأسلحة ، لأن « الجهاد أولى من اداء فريضة الحج »[٣٣] .

وسئل مرة عن رأيه في أساليب الحركة التقليدية ، المعتمدة على محاورة الانكليز بالطرق الشرعية ، فأجاب اجابة قصيرة مكثفة : « من جرّب المجرَّب فهو خائن .. والمؤمن اذا قال صدق واذا قيل صدّق »[٣٤] . وفي شرحه للجملتين قال : ان الحركة الوطنية لا تستطيع الثقة بالانكليز مجدداً ، بعد تجربة الهاشميين في مكة وبغداد ، وبعد تجربتها هي منذ الاحتلال حتى الآن . ولا يستطيع المؤمن أن يحاور المستعمر لنيل حقوقه بالاقناع . لأنه يجب أن لا يصدقه أو أن يكون صادقا معه .

ووصفت ابنته ميمنة حادثاً صريحاً معه ؛ اذ رأته « صباح يوم مهتاجاً هياجاً شديداً ، ويردد اشعاراً حماسية حربية ، فخشيت من مغبة هذا الهياج ونتيجته »، وقالت له : « ان الطرق السلمية هي خير طريق يمكن أن يسلكه شعب اعزل كشعبنا ، لأن القوة يجب أن تجابهها قوة مثلها ، ونحن لا قوة لدينا ولا مال ، فالأحسن ان نسعى الى حقنا بالطرق السلمية ». وتصف حالة أبيها قائلة : « ولكن الشهيد لم يتركني أتمم حديثي ، بل صاح بصوته الجهوري : اصمتي يا ميمنة . ثم أطرق برهة رفع بعدها رأسه وأنشد ؛ وهو ينظر اليّ نظرة ذات معنى :

واعلم بأن عليك العار تلبسه   من عضّة الكلب لا من عضة الأسد[٣٥]

وفي اطار تحرير الدين من الخزعبلات والشعوذة والتصوف ، هاجم الشيخ القسام القاديانيين ، « ووصفهم بالكفرة »[٣٦] ، وكان شيخهم « يحرّم الجهاد ومدعوماً من الانكليز »[٣٧] . وهم جماعة دينية جاءت من باكستان والهند واستوطنت جبل الكرمل . وعندما قام زعيمهم القادياني بزيارة دمشق ، طعنه ثائر سوري بسكين « ولكن الضربة لم تكن قاتلة »[٣٨] .

كما هاجم الشيخ القسام البهائيين الذين نقلوا « مقام الباب ، أصل ديانتهم »[٣٩] ، من بلاد فارس الى منحدر جبل الكرمل في حيفا عام ١٩٠٨ ، وكان الصراع بين طرفي الديانة في حيفا وعكا ، أشبه بصراع الأمراء المدعومين من الاحتلال . فعباس « أفندي » . كبير البهائية في عكا « لم يترك وجيهاً الا وأهداه سجّادة فاخرة أو عباءة عجمية »[٤٠] .

وكان القسام يعيب على الشيخ صالح العشماوي* تزمته وطريقته الصوفية ؛ اذ كان اتباعه « يحملون المسابح الطويلة في رقابهم ويطلقون لحاهم »[٤١] ، مع أن العشماوي كان يدعو الى الجهاد ضد الانتداب والصهيونية . وحرّم العشماوي التدخين على أتباعه ، وأفتى بمنع الأعراس تحت حجة ان الطبل يجمع الشياطين ! وعندما سؤل القسام أجاب : « اعملوا عرساً واعزموني ، فحتى الفرح يريدون اغلاقه ؟ اذا لم يتنفس الشباب فكيف سيتحملون المسؤوليات الجادة ؟ »[٤٢] . وللتدليل على جمود العشماوي ، قيل أنه التقط السيجارة من يد الضابط الانكليزي الذي داهم بيته على رأس قوة من البوليس ، ورماها في المرحاض قائلاً : « بيتي ليس بيتاً للنجاسة »[٤٣] ، بينما كان الشيخ عز الدين القسام يدخن . وجاءت الفرصة لاختبار العشماوي وجماعته في عام ١٩٣٦ ، عندما طلبوا أسلحة من القساميين ليشاركوا في الجهاد « فأحضرناها لهم ، ووضعناها في بلد الشيخ (حوّاسه) ، بجانب جامع الحاج عبد الله ، فخافوا من نقلها »[٤٤] .

وفي الثلاثينات ؛ حيث شاعت حوادث قطع الطرق ، وظهور عصابات السلب ، برز اسم « أبو جلده » ، واحيط بهالة من التقدير ، كتعبير عن الحس الشعبي ورغبته في مقاومة الانتداب البريطاني . وفي عام ١٩٣٢ ، سؤل الشيخ القسام عن رأيه في أهل الشعراوية وجبل نابلس ، الذين يقطعون الأشجار ويسممون الحيوانات ، وينعتهم الناس بالحرامية وقطاع الطرق ، فأجاب : « دعهم يعملون ، لأن في عملهم رجولة ، سنحولها في يوم من الأيام الى جهاد . وما دام المستعمر يرغب في اماتة نفوسنا ، فان هؤلاء أقرب الى الله ، والى حب الجهاد من المستكينين »[٤٥] . وبذلك ، سبق الشيخ عز الدين القسام المؤرخ السوفياتي بيتروف ب ٤٣ سنة ، في تقويم ظاهرة أبي جلدة ، اذ قال المؤرخ السوفياتي ، في معرض حديثه عن انتفاضة تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٢ : « في ذلك الوقت ،

برز زعيم فصائل الفدائيين ، البطل الشعبي أبو جلده ، الذي كان يزرع الرعب في قلوب المستعمرين ببسالته وجرأته »[٤٦] .

وثبت ، بالتدقيق ، ان عز الدين القسام ، بالاشتراك مع كامل القصاب ، اصدر كتاباً بعنوان : « النقد والبيان في رد أوامر خزيران »[٤٧] ، عن طريق « مكتبة محمود يوسف عيسى الصفدي »[٤٨] ، رداً على الكتاب المشترك للشيخ عبدالله الجزّار ، مفتى عكا ، والشيخ صبحي خزيران ، قاضي عكا « فصل الخطاب في الرد على القسام والقصاب »[٤٩] . وكان الكتاب المشترك للقسام والقصاب « ضد الطرق الصوفية والشعوذة »[٥٠] ، و« داعية للوطنية عن طريق الإسلام ، فحاربه الحاج خليل طه وأعوانه ، وقاموا بشرائه من الأسواق وحرقه »[٥١] ، وداعية لتحريم « التهليل والعويل خلف الجنائز »[٥٢] .

وانفرد القسام ، بتنظيم الاحتفال بعيد المولد النبوي في حيفا ، على نحو خاص ، اذ يحضر العامل البحري « مصباح الصراري »[٥٣] « شختورته » ، فتركب لها العجلات وتكسى بالزينة ، وتتصدر موكب « طارق بن زياد »[٥٤] وهو يطوف شوارع المدينة من الصباح حتى العصر . وتمر « السفينة » أمام دائرة البوليس ، وخلفها الآلاف ، وعلى رأسهم عمال البحر الذين « يحضرهم سرور برهم بتكليف من القساميين »[٥٥] ، وعمال السكك الحديدية وعمال البناء والحجارة ، فحينها كان للقسام نفوذ قوي في قواعد جمعية العمال العربية الفلسطينية[٥٦] . وأراد الموكب أن يشعر الناس بالخطر القادم ، مذكراً اياهم بقول طارق بن زياد الشهير : « البحر أمامكم والعدو وراءكم » .

٢ ـ التنظيم

بات معروفاً أن القسام ، وهو يلقي خطبه ودروسه ، كان يتفرس في وجوه المصلين « ويدعو من يتوسم فيه الخير والاستعداد لزيارته في منزله . وتتكرر الزيارات حتى يقنعه بالعمل لانقاذ فلسطين مما يهددها من خطر ، ضمن مجموعات سرية صغيرة لا تزيد عن خمسة أنفار[٥٧] . ووصف ابراهيم الشيخ خليل ما حدث معه في هذا المجال ، بأنه في احدى خطب الجمعة ، أواخر عام ١٩٣٤ ، « هزتني الخطبة فقررت أن انتظر بعد الصلاة لاصافح الشيخ .. عندما صافحته شكرني وضغط على يدي ، ففهمت أنه يريد رؤيتي . بقيت بعيداً عنه ،

وكان يمشي ويتطلع نحوي حتى وصلنا الى باب المسجد ، فالتفت نحوي وقال : اتبعني ولكن عن بعد . تبعته حتى دخل داره ، ووجدت هناك ثلاثة رجال تشنجت ملامحهم عندما شاهدوني . وعرفت لاحقاً انهم أبو صبحي (العبد أبو طه) والشيخ محمود زعرورة ، وعبدالله أبو ذان (أبو علي المزرعاوي) . انسحب ابو صبحي وأبو علي ، وحاول الشيخ القسام اجلاسهم ، وخرج خلفهم ، وسمعت أبا صبحي يقول له : لم يعد علينا سوى الأولاد الصغار ، اذا أكل كفين قال من الألف الى الياء .. ! حينها كنت في التاسعة عشرة من عمري وعزّت عليّ نفسي فبكيت . وضع القسام يده على كتفي وحاول ترضيتي ، وقال مخاطباً الشيخ محمود زعرورة : أشهد يا شيخ محمود ، أن لي في هذا الرجل نظرة . وحاول منعي من الخروج فرفضت ، وخرجت متوتراً ودموعي فوق وجهي »[٥٨] . وقد كان لهذا اللقاء ، رغم نتائجه ، الأثر الحاسم في حياة ابراهيم الشيخ خليل : فاثباتاً لرجولته ورداً على الاستهتار به ، قام بعمليات فردية قادته ، مرة أخرى ، الى القساميين ، وهذه المرة كانت بعد استشهاد القسام .

وتنطبق البداية عينها على حسن باير الذي قال : « عرفني الشيخ طه الدريني من الناصرة ، على الشيخ القسام في المسجد . وبعد صلاة العشاء أخذني عز الدين القسام الى بيته ، قرب البرج ، وأنامني عنده »[٥٩] . وكانت تلك الليلة هي بداية حسن باير مع الحركة القسامية . وكذلك القبضاي أحمد الطيب* الذي يقول محمد عز الدين القسام عنه : « حين احضروه الى المسجد ، صار من أفضل المخلصين ، واستشهد في العمل التحضيري ؛ وهو ينقل أسلحة عن طريق الناصرة . وبكى أبي عليه وكأنه ابنه »[٦٠] .

وصحيح ما قاله أحد الباحثين ، بأن تنظيم القسام انتشر بين اوساط فقراء المدن المتدينين ممن التفوا حوله في المسجد[٦١] ، لكن القسام لم يحصر نشاطه التنظيمي في الذين جاؤوا اليه في جامع الاستقلال ، بل خرج بنفسه الى أصحاب القضية في بيوتهم وأماكن عملهم وراحتهم . خاصة وأنه يملك سمات شخصية تقرّبه من القاعدة الاجتماعية للتنظيم والتي تتمثل بالعمال والفلاحين . اذ كان « يكره التأجيل والمماطلة وينجز المهمات فوراً . حاضر البديهة وسريع الخاطر »[٦٢] ، ينفذ ما يقول ولا يكترث لنفسه في شيء ، وحياته بسيطة في بيته وملبسه ومأكله »[٦٣] ، و« الناس تحبه وتحترمه »[٦٤] . وللتدليل على تواضعه ،

روى ابنه الحادثة التالية : « جاء شخص يسأل عنه في البيت وكان غائباً . وبحث عنه في جامع الاستقلال وجمعية الشبان المسلمين ولم يجده ايضاً . ودله أحد المارة على مكانه ، وكان يتناول افطاره عند قيِّم الحمام ؛ حيث الأخشاب والدخان والشحبار . وتبين أن ملقم الحمام ، وكان معدماً ، قد دعاه الى تناول الافطار معه ، فلبى دعوته باكراً »[٦٥] . ومن المقهى « جذب الى الجامع ، ثم الى الثورة ، عشرات المقاتلين »[٦٦] .

وعلى خلاف أجنحة الحركة « الوطنية » الاصلاحية والرجعية ، كان تنظيم القسام ، أول تنظيم فلسطيني يستقطب الفلاحين الفقراء والبدو ، لا الارستقراطية الريفية . فأقام « علاقات قوية مع منطقة العبهرية وفيها عرب منسي ، أبي زريق والسعديين »[٦٧] ، ونسج علاقات مع عشرات القرى وكان « الرأي العام متستراً على حركة الشيخ القسام وجولاته شبه العلنية »[٦٨] ، واستطلع بنفسه مواقع تخزين الأسلحة واقامة المزارع ، ومن جملتها زار الكابري برفقة الشيخ يوسف الزيباوي « وطلب مكاناً للتمويه حتى يزرعه بالتمباك »[٦٩] .

٣ - التدريب

بعد أن انتشرت الحلقات الجهادية السرية في حيفا ، أساساً ، والى حد ما في الأرياف الشمالية ، انتقل القسام ، ومعه قيادة حركته ، الى التحضير العسكري للثورة ، من خلال تدريب الأعضاء وتسليحهم ، وتأمين مراكز تخزين الأسلحة (المستودعات) ، ومحاولة تأمين شراء وطرق نقل الأسلحة من الخارج . ومرة أخرى ، كان لجامع الاستقلال دور الريادة . فبعد انتهاء دروس القسام كان يقوم المدرب « محمد أبو العيون » « بتدريب الموجودين على البندقية واحداً واحداً »[٧٠] . ورغم صعوبة حصر السنة التى ابتدأت فيها التدريبات ، فمن

المتوقع أن تكون أواخر عام ١٩٢٨ ، لأن حادثة البراق في أيلول (سبتمبر) ١٩٢٨ ، كانت قد « دفعت الشيخ ورفاقه الى الانتقال من مرحلة الدعوة الى مرحلة العمل »[٧١] . وجاءت هبة آب (اغسطس) ١٩٢٩ ، بأسبابها ونتائجها ، لتعزز هذا الاتجاه ، ولتسرع بعملية التحضير العسكري لإعلان الثورة المسلحة . وأخذ الشيخ القسام يتولى عملية التدريب بنفسه ، فكان « يخرج ليلاً الى جبل الكرمل ويدرب الأعضاء على الأسلحة ويوجههم في أساليب الكفاح المسلح »[٧٢] . ويصف حسن شبلاق ، عضو الهيئة المسؤولة عن الحجّارة* في أراضي « الكبابير » بجبل الكرمل ، وأحد الذين تدربوا على يد الشيخ ، الخطوات بالتالي : « كنا نجتمع ، قبل الخروج الى جبل الكرمل ، في واحد من الجوامع الثلاثة : الاستقلال ، الجامع الكبير (الجرينة) والجامع الصغير . وكان الخروج عادة على مستوى الحظيرة ، ثلاثة أشخاص يعرفون بعضهم بعضاً . والحجة القانونية التي كنا نتسلح بها في خروجنا وجود المحاجر ، فلى محجر هناك مثلاً ، ومعظم الحجّارة السبعمائة كانوا من القساميين . وكان القسام يخرج مع كل حظيرة ويعلمها فك وتركيب البندقية وتنظيفها وكيفية استخدامها »[٧٣] .

وبتكامل المهمات الثلاث : التحريض ، التنظيم والتدريب ، أصبحت قضية التسليح قضية رئيسية . وتمكن التنظيم ، بالاعتماد على اشتراكات عناصره وتبرعاتهم ، وتبرع زوجاتهم بما يملكون من حلي ، وبعض التبرعات الشعبية السرية ، وعائدات المشاريع الزراعية ، من حل هذه المعضلة ، بشراء الأسلحة محلياً ، بعد أن تعثرت كافة محاولات شراء الأسلحة من الخارج .

جمعية الشبان المسلمين (١٩٢٨ - ١٩٣٢)

تداخلت اربعة عوامل في تأسيس جمعيات الشبان المسلمين في فلسطين ، عام ١٩٢٨ ، واستمرارها ؛ وهذه العوامل هي : جولة الدكتور عبد الحميد سعيد ، الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين في مصر ، قيام جمعيات الشبان المسيحيين تحت رعاية حكومة الانتداب البريطاني ، انعقاد المؤتمر التبشيري في القدس ، وافلاس سياسة المؤتمرات الفلسطينية . ولا يصح اعطاء هذه العوامل وزناً متماثلاً في تأسيس الجمعيات ؛ اذ لعب العامل الأول دور لفت النظر فقط . صحيح أن الدكتور عبد الحميد سعيد زار فلسطين وطاف معظم مدنها « وخطب في

المساجد داعياً الى تأسيس هذه الجمعيات شارحاً أهدافها ومبادئها »[٧٤] ، ولكن من غير الصحيح أن ننسب تكوين الجمعيات الى « الموجة التي جاءت من مصر »[٧٥] ، كما تقول بيان نويهض الحوت* ، بالاستناد الى هذه الزيارة وغيرها ، والى بقاء الاتصال بين جمعيات فلسطين وبين المقر الرئيسي في مصر . وليس هناك من مصلحة أو قناعة تربط معظم مؤسسي الجمعيات في فلسطين بأهداف جولة الدكتور عبد الحميد سعيد ، وكيل الملك فؤاد من أجل تنصيبه خليفة على المسلمين ، وجعل القاهرة مقراً لهذه الخلافة .

أما العامل الثاني ، فهو ، في الأصل ، لعبة بريطانية ، تستهدف شق الصف الوطني بين مسلمين ومسيحيين . فاحتضنت جمعية الشبان المسيحية ، ولمزيد من الاستفزاز عينت المستر بومن ، مدير معارف فلسطين ، والمشرف على ادارة المدارس الإسلامية ، « رئيساً لمجلس جمعية الشبان المسيحية في القدس »[٧٦] . وأباحت للموظفين المسيحيين الاشتراك في الجمعية ، لتفتح شهية الموظفين المسلمين الى تقليد مماثل . وعندما تفتحت شهيتهم ، كانت السلطة قد تنبهت الى ان معظم الجمعيات بيد العناصر الوطنية ، فاصدرت مرسوماً يحظر « على الموظفين الاشتراك في جمعيات الشبان المسلمين وحضور اجتماعاتها ، مهما كان القصد من تلك الاجتماعات »[٧٧] .

أما العامل الثالث ، فهو العامل المباشر ، اذ عقد المؤتمر التبشيري ، في أواخر آذار (مارس) ١٩٢٨ ، في جبل الزيتون ، برئاسة الدكتور موط ، رئيس المجلس التبشيري العالمي وعضوية مندوبي ٥١ دولة بحضور المطران ركز ، مطران الانكليز في القدس « دون أن يكون بينهم مندوب واحد يمثل المسيحيين العرب »[٧٨] . وقوبل المؤتمر ، الذي يدعو الى تنصير المسلمين ، بالمظاهرات وعرائض الاستنكار الواسعة . ففي أكثر من مدينة جرت مظاهرات شعبية ، وفي غزة أدى التصادم مع البوليس « الى اعتقال مائة من المتظاهرين »[٧٩] . وشارك المسيحيون في توقيع « البرقيات العديدة مع المسلمين وبالبرقيات الخاصة »[٨٠] ، التي تستنكر عقد المؤتمر ، وتدعو الى ايقافه .

وصادف انعقاد المؤتمر ، بدء احتفالات موسم النبي موسى ، مما ضاعف من خطر الانفجار الشامل ، فعمد المندوب السامي اللورد بلومر ، الى عقد

مساومة ، من موقع الضعيف ، مع الحاج أمين الحسيني ، لايقاف الاضطرابات مقابل ايقاف المؤتمر . وبذلك حكم الحاج أمين فلسطين « حكماً فعلياً ثلاثة أرباع الساعة ، وهي فترة المقابلة بينه وبين اللورد بلومر»[81] ، وأوقف المؤتمر التبشيري أعماله . فتداعى الوطنيون الى عقد مؤتمر النوادي الإسلامية في يافا (نيسان ـ ابريل ١٩٢٨) ، وقرر المؤتمر « تأسيس جمعيات الشبان المسلمين في كل أنحاء البلاد »[82] . وهنا يقع صبحي ياسين في الخطأ مرة أخرى ، في معرض حديثه عن القسام ، فيقول انه « انتسب الى جمعية الشبان المسلمين في حيفا سنة ١٩٢٦ فانتخب رئيساً لها »[83] ، أي قبل تأسيس الجمعية بسنتين ، ويقع في الخطأ ذاته عادل حسن غنيم فيقول أن الجمعية « تألفت في حيفا عام ١٩٢٧ »[84] ، وناجي علوش « انتسب سنة ١٩٢٦ الى جمعية الشبان المسلمين فانتخب رئيساً لها »[85] .

أما العامل الرابع ، فقد شكل خلفية الموقف السياسي من سياسة المؤتمرات ، منذ المؤتمر الأول (٢٧/١ ـ ٩/٢/١٩١٩) القدس) وحتى المؤتمر السابع والأخير (٢٠ ، ٢١/٦/١٩٢٨ ـ القدس) . المؤتمر الأول انتخب عارف « باشا » الدجاني رئيساً ، وهو من « كبار الموالين للانكليز »[86] ، وانقسمت وفوده الى « ثلاثة أفرقة : فريق مخلص وطني حر لا يراعي في وطنيته شيئاً ، وفريق وطني ولكنه جبان ضعيف الرأي ، سهل القياد .. وفريق مأجور أو أجنبي النزعة يراعي في ما يطلب إما مصلحة الانكليز ، أو مصلحة الفرنساويين أو مصلحة الصهيونيين »[87] ، وبتحويل هذه الفرق الى أرقام ، ذكر الكابتن كامب ، من دائرة الاستخبارات البريطانية أن « ١١ مندوباً ، من بين مجموع المندوبين ، البالغ عددهم ٢٧ مندوباً ، كانوا موالين لبريطانيا . وكان اثنان منهم موالين لفرنسا ، واثنان آخران ليست لهما ارتباطات سياسية معينة . أما الباقون وعددهم ١٢ مندوباً فقد كانوا من أنصار الوحدة العربية »[87] . واقترح المؤتمر في مذكرته المرفوعة الى مجلس السلم ، الاستعانة ببريطانيا « دون الاخلال بالاستقلال والوحدة العربية »[89] .

ولم يكن الحاج أمين الحسيني ، قبل أن يعينه هربرت صموئيل رئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى ، عنصراً قيادياً في أي من المؤتمرات الأربعة . وجرّب حظه لمرة واحدة ولم يفز ؛ وذلك عندما رشح نفسه لعضوية اللجنة التنفيذية ، في

المؤتمر العربي الفلسطيني الرابع (٢٩/٥ ـ ٢/٦/١٩٢١) ، فنال « خمسة أصوات » ، وكان ترتيبه « السادس عشر »[90] . ومنذ توليه رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى ، شكل بنفوذ المجلس ودوره، قيادة موازية للمؤتمرات ، ولعب دور القائد ، غير العلني ، للكتلة الحسينية في المؤتمرات وخارجها .

وجاء المؤتمر العربي الفلسطيني السابع محصلة اتفاق بين الكتلة الرجعية (النشاشيبية) والكتلة الاصلاحية التقليدية (الحسينية) . ورجحت كفّة الكتلة الأولى في عدد المندوبين ، وفي عضوية اللجنة التنفيذية (٢٦ من ٤٨ عضواً) ، وصبغت قرارات المؤتمر بطابعها ، فكان أول مؤتمر تخلو قراراته من التنديد الصريح بوعد بلفور ، وأول مؤتمر يطالب بحكومة برلمانية في ظل الانتداب . ولذلك ، كان « أضعف مؤتمرات فلسطين من ناحية الحماس وقوة القرارات وشمولها وطابع النضال .. ودخله مخلصون مجاهدون ، كما دخله منافقون ، بل وسماسرة وباعة أراض وجواسيس »[91] .

وتعقيباً على قرارات المؤتمر ، اصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني ، بياناً في السادس من تموز (يوليو) ١٩٢٨ ، حملت فيه على المؤتمرين « المعتدلين الذين يطالبون بالتفاهم مع الانكليز »، وعلى المؤتمر الذي « لم يطالب بتحرير فلسطين ، بل طلب مجلساً نيابياً على أساس الانتداب ، وهذه خيانة للأمة » . ولذلك لا يرى الحزب في « المؤتمر السابع واللجنة التنفيذية الحاضرة ممثلين للشعب العربي »، وصرّح بأنه مستعد « أن يحرر ويساعد كل كتلة وطنية ثائرة ، في الحركة الوطنية ، تحارب المستعمرين » . ودعا بيان الحزب « جميع العمال والفلاحين الى محاربة المستعمرين والصهيونية والخائنين من الوطنيين ، والمطالبة بسحب العسكر والموظفين الانكليز ، والغاء وعد بلفور ، والاستقلال التام »[92] .

ورد السيد منيف الحسيني* ، صاحب جريدة الجامعة العربية ورئيس تحريرها ، على بيان الحزب قائلاً : « ان الفلسطينيين لا يرفضون التفاهم مع الانكليز ولا مع غيرهم من الأمم اذا كان هذا التفاهم يضمن لهم حقوقهم كاملة غير منقوصة »[93] . ويبدو أن جريدة السيد منيف ، ردت عليه ، ومن على صفحاتها ، بعد سنتين من مراهناته على انتزاع الحقوق الكاملة ، غير المنقوصة ،

من الانكليز بالتفاهم . فكتب جمال الحسيني (أصبح لاحقاً رئيس الحزب العربي) وصبحي الخضرا (أصبح لاحقاً عضواً مؤسساً في حزب الاستقلال) ، في عدد واحد معلنين افلاس المراهنة على الانكليز ، فقال جمال الحسيني : « ما دامت الحكومة الانكليزية تدير هذه البلاد ادارة مباشرة ، فان كل سياسة تتعلق بتعاون العرب مع الحكومة تكون سياسة فاشلة ؛ الأمر الذي يثبت تماماً في مدة الثلاث عشرة سنة الماضية »[٩٤] . وبالمعنى ذاته قال صبحي الخضرا : « وا أسفاه ! كيف قضينا هذه السنين الطوال في الاحتكام الى بريطانيا ؛ وهي أصل الداء ورأس البلاء ؟ ! »[٩٥] .

وما ساعد على وصول المؤتمر السابع الى هذه النتائج البائسة ، ان جميع الأحزاب الرجعية ، الموالية للانتداب البريطاني أو الصهيونية أو للاثنين معاً ، اشتركت ، عن طريق الذين ساهموا في تأسيسها ، في المراحل المختلفة ، ضمن الكتلة النشاشيبية ، ابتداء من الحزب العربي الموالي لبريطانيا ، مروراً بالحزب الوطني وحزب الزرّاع وجمعية تعاون القرى وحزب الأهالي ووصولاً الى الحزب الحر الفلسطيني . وليس معنى ذلك أن المؤتمر خلا من الوطنيين والتقدميين ، ولكنهم كانوا جزيرة صغيرة في بحر متجانس . ورغم أن اقتراح هاني أبو مصلح القاضي « بتأسيس جمعيات للعمال العرب في جميع البلاد »[٩٦] قد سقط ، فان الكاتب التقدمي بندلي الجوزي والوطنيين : محمد عزة دروزة ، صبحي الخضرا ، صدقي الطبري ، سليم عبد الرحمن وعوني عبد الهادي ، شاركوا في عضوية اللجنة التنفيذية ، وشارك في عضوية المؤتمر هاني أبو مصلح ، عبد القادر اليوسف ورشيد الحاج ابراهيم .

واستجابة لقرار المؤتمر الاول للأندية الإسلامية ، جرت انتخابات جمعيات الشبان المسلمين في المدن ، في الفترة ما بين أيار (مايو) الى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٨ . وفاز برئاسة الجمعية في حيفا ونابلس وغزة كل من الشيخ عز الدين القسام ، محمد عزة دروزة وحمدي الحسيني . كما فاز بعضوية اللجان القيادية للجمعية كل من : عوني عبد الهادي (القدس) ، جمال الحسيني (القدس) ، أكرم زعيتر (عكا) ، أحمد الشقيري (عكا) ، الشيخ عبد الحميد السائح (نابلس) ، محمد علي دروزة (نابلس) ، هاني أبو مصلح (حيفا) ، رشيد الحاج ابراهيم (حيفا) ، حمدي الحسيني (يافا) ، خالد

الفرخ (يافا) الحاج عبدالله أبو حمام (يافا) . وكانت أولى الجمعيات قد تأسست في نابلس (١٨ أيار - مايو) ، واعلنت دستورها في ١٢ حزيران (يونيو) بعد موافقة حكومة الانتداب عليه[٩٧] . وتضمن البند الثاني من الباب الأول لدستور الجمعية النص التالي : « لا تشتغل هذه الجمعية في الشؤون السياسية »[٩٨] . وهذا النص يحكم عمل جميع الجمعيات ؛ مما يدل على أن الوطنيين ارادوها ستاراً علنياً لاعمالهم ، وبدون ذلك يصعب تفسير نجاح محمد عزة دروزة برئاسة جمعية نابلس وقبوله بعضوية اللجنة التنفيذية للمؤتمر السابع ، في آن واحد .

وفي حيفا ، فاز برئاسة الجمعية ، الشيخ عز الدين القسام ، الذي نال أكثر الأصوات ، وشاركه في عضوية اللجنة من الوطنيين هاني ابو مصلح ورشيد الحاج ابراهيم . وفي الانتخابات الثانية ، شباط (فبراير) ، ١٩٣٠ ، فاز القسام بعضوية اللجنة ، ولكن الرئاسة اصبحت بيد رشيد الحاج ابراهيم[٩٩] . وفي اجتماع جمعيات الشبان المسلمين في المنطقة الشمالية ، في نادي جمعية الشبان المسلمين في حيفا ، في الأول من حزيران (يونيو) ١٩٣٢ ، وبحضور مندوبي جمعيات حيفا ، عكا ، صفد ، جنين ، صفورية والطيرة ، وانتخب المؤتمر لرئاسته رشيد الحاج ابراهيم ، ونائباً له محمود الصفدي ، وسكرتيراً ناجي كتمتو ومساعدا للسكرتير حكمت النملي[١٠٠] . وغاب اسم الشيخ القسام عن هيئة الرئاسة ، والدليل المكتوب لا ينفي حضوره أو غيابه .

وكان رشيد الحاج ابراهيم ، قد أصدر بياناً باسم رئيس مؤتمر جمعيات الشبان المسلمين ، هاجم فيه قرار الحكومة وتعميمها على الدوائر ، بحظر اشتراك الموظفين في الجمعيات[١٠١] . وهاجمت افتتاحية جريدة الجامعة العربية ، تحت عنوان : « كيف تحارب حكومة فلسطين جمعيات الشبان المسلمين ؟ » ، هاجمت اغلاق الحكومة لجمعية يافا* أكثر من سنتين بحجة اشتغال بعض أعضائها بالسياسة ، واغلاق جمعية غزة لسبب نفسه . واستغربت الجريدة كيف تشن الحكومة « غارة شعواء » على جمعيات الشبان المسلمين ، فيما تبيح ذلك لجمعية الشبان المسيحية في القدس وفروعها[١٠٢] .

ومرة أخرى ، اصدر رشيد الحاج ابراهيم ، بياناً ، في حيفا ، بتاريخ ٢٨ تموز (يوليو) ١٩٣٢ ، معلناً قرار جمعيات المنطقة الشمالية للاحتفال « بذكرى

بطل الإسلام والشرق صلاح الدين الأيوبي وموقعة حطين »[١٠٣] . فأقيمت الاحتفالات في معظم المدن ، وفيها الكثير من التحريض على مجابهة الاستعمار والاسترشاد بتجربة صلاح الدين الأيوبي[١٠٤] .

وتحت ستار الجمعية ، يبدو أن القسام استفاد في تعزيز صلاته بالريف ، وفي ايجاد مكان علني للالتقاء والمناقشة ، وفي التمرين العلني « على الخردق بجفت وضع خصيصاً لذلك »[١٠٥] ، فكثيراً ما كان ينام على كرسي الجمعية ولا يعود الى البيت[١٠٦] . وبالاتفاق بين الرجلين سهّل رشيد الحاج ابراهيم مهمة القسام في الجمعية ، كما سانده هاني أبو مصلح وحكمت النملي[١٠٧] . ولأن الجمعية لم تكن غير ستار للنشاط الحقيقي ، فقد حقق القسام غرضه الكفاحي من رئاستها ومن عضوية لجنتها القيادية .

الصلة بالأحزاب والمجلس الإسلامي

تعرضت التجربة التنظيمية للشيخ عز الدين القسام ، في ما يخص الحركة المعروفة باسمه ، أو في ما يخص صلاته بالأحزاب والمجلس الإسلامي الأعلى ، الى الكثير الكثير من الالتباس والتأويل وبخاصة بعد استشهاده . فللتجربة القسامية الفذّة ، في ظروف نشأتها وتكوينها ، وفي موقفها السياسي وممارستها للثورة المسلّحة ، قيمة كبرى تُغري بمحاولة تجييرها ومصادرتها .

ولتحرير قراءة التجربة من الأوهام ، ثبت ، بالتدقيق ، أن الحاج أمين الحسيني ، لم يكن معنياً ، أو على صلة ، بالوظائف التي مارسها الشيخ عز الدين القسام كمدرس وامام ومأذون شرعي . اذ نال القسام تعيينه في مدرسة البرج الإسلامية وفي جامع الاستقلال عن طريق الجمعية الإسلامية في حيفا[١٠٨] ، ونال وظيفة المأذون الشرعي عن طريق الشيخ صبحي خيزران[١٠٩] ، بعد انتقاله من عكا ، وتوليه منصب القاضي الشرعي لمدينة حيفا . ولأن اوقاف حيفا لها استقلاليتها في تعيين المدرسين والخطباء والمأذونين الشرعيين[١١٠] ، يصبح من نافلة القول ، نفي علاقة الحاج أمين الحسيني والمجلس الإسلامي الأعلى بهذا التعيين . ويصدق الأمر كذلك ، على كل الذين عملوا في مدرسة البرج الإسلامية مثل هاني أبو مصلح ، رشيد بقدونس ، عبدالله الخطيب ، سعيد الحاج ابراهيم والشيخ كامل القصّاب . والصلة الوحيدة التي كانت قائمة بين المفتي والمدرسة

هي تلبيته دعوتها لحضور الحفلة السنوية الختامية ، التي كانت تتضمن بعض العروض المسرحية . وهذه الصلة هي مفتاح العلاقة بين عز الدين القسام وأمين الحسيني .

ومن الخطأ اعتماد هذه الوقائع للتدليل على التناقض بين نهج القسام والمفتي . فالحاج أمين الحسيني ، ليس بحاجة الى شهادة جديدة . للتدليل على خطه الإصلاحي التقليدي ، وعدم مراهنته على الثورة المسلحة ، كخط استراتيجي في النضال ضد الانتداب البريطاني والصهيونية ، لأن تجربة الرجل كلها من عام ١٩٢٢ الى عام ١٩٣٦ ، هي دليل نموذجي على ذلك .

لقد كان الحاج أمين على علاقة بالعمل المسلح والعنف الجماهيري لثلاث مرات فقط ، قبل هروبه من القدس والتجائه الى لبنان . ومرتان قبل توليه رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى ، ومرة بعد توليه رئاسة اللجنة العربية العليا ؛

كانت المرة الأولى حين قاد حوالي « الفي مسلح »[١١١] في الثورة العربيّة الكبرى ، ومعروف ان الثورة العربية قامت على أساس التحالف مع بريطانيا سياسياً ، وأن قواتها كانت تحت امرة القائد البريطاني اللنبي في مسرح العمليات الحربية .

المرة الثانية ، حين شارك في موسم النبي موسى في نيسان (ابريل) ١٩٢٠ ، في القدس ، والقائه خطبة حماسية دعت الى تنصيب الأمير فيصل ملكاً على العرب ، ودفعت ، مع غيرها من الخطب ، حماس الجماهير للاصطدام مع عصابات جابوتينسكي الفاشية .

ولا يوجد في الحادثتين ما يوحي ، علناً أو ضمناً ، باصطدام الحاج امين الحسيني مع الاحتلال البريطاني . وحتى المؤرخين ، الذين صوّروا انتفاضة آب (أغسطس) ١٩٢٩ ، على انها ثورة البراق وعلى رأسها المفتي ، اشاروا ، هم أنفسهم ، الى خطاب المفتي أمام جماهير المتظاهرين في باب العمود في القدس ، يوم ٢٣ آب (أغسطس) ، مجدداً ثقته بحكومة الانتداب « الحكومة قوية وستحميكم من اليهود وتحافظ على حقوقكم ومقدساتكم »[١١٢] .

أما المرة الثالثة ، فكانت خلال الاضراب الكبير عام ١٩٣٦ ، عندما جاءت

قوات فوزي القاوقجي من العراق ، بعلم مسبق من الحاج أمين الحسيني ، كرئيس للجنة العربية العليا . ويقول فوزي القاوقجي ، في مذكرات ، ان اللجنة أخذت تسمعه يتحدث بابهام « عن امكان عقد هدنة مع الانكليز .. حتى فوجئنا باعلان الهدنة من قبل الانكليز ، وبنداء ملوك العرب على لساني ، بالراديو ، دون أن يكون لي سابق اطلاع ، وهذه اول خطيئة كبرى ارتكبت منذ اعلان الثورة »[١١٣] .. ويضيف ان اللجنة « أعلنت فك الاضراب ... بدون اطلاعي وأخذ رأيي »[١١٤] . وبعد أن يعلن رأيه المعارض للانسحاب من الميدان « طلبت منهم أن يعطوني وثيقة رسمية من المسؤولين في القدس تبين أن الانسحاب بطلب منهم » ، فعاد الرسول (١٧/١٠/١٩٣٦) برسالة شفوية تعلن أنهم « يتعهدون بكل ما نحتاجه للانسحاب »[١١٥] . وتبرهن هذه الوقائع ، على أن الحاج أمين تعامل مع الثورة ، كوسيلة ضغط تكتيكية ، لا كشكل نضالي استراتيجي بديل لخط النضال الشرعي بالوسائل الشرعية ، عبر المقابلات والوفود والعرائض وانتظار قرارات لجان التحقيق .

وفي المقابل ، برهنت سيرة حياة عز الدين ومواقفه ، على عدم مراهنته على سياسة المؤتمرات وما ينتج عنها وما تمثله من قوى اجتماعية . وعندما انخرط بتجربة جمعية الشبان المسلمين ، كواجهة علنية ، كانت سياسة المؤتمرات تصل الى حافة الافلاس ، بانعقاد مؤتمرها الأخير ، المؤتمر السابع ، الذي استمر بكفنه الميت : اللجنة التنفيذية .

والسؤال الجوهري هو : لماذا يصر الحاج أمين الحسيني ، وكان بمثابة زعيم فلسطين الأوحد ، على اثبات حسن علاقته مع الشيخ عز الدين القسام وحركته ، اذا لم يكن الأمر محاولة تعويض ما نقص من تجربة المفتي ، بتجربة ليس له شرف المساهمة فيها أو دعمها ! ؟ ! وليت الأمر توقف عند هذا الحد . بل تعداه ، على يد اميل الغوري ، الى مصادرة تجربة القسام كاملة وتجييرها لصالح تكوين اسمه « التنظيم السري »، زاجاً باسم الشهيد عبد القادر الحسيني كرأس قيادي له ، وكقائد لـ« جيش الجهاد المقدس »[١١٦] عام ١٩٣٧ ، والمعروف أن قوات الجهاد المقدس ، بقيادة عبد القادر الحسيني ، تأسست في عام ١٩٤٧ ، وقاتلت ضد قرار التقسيم ، وجابهت القوات الصهيونية في معظم المحاور ، وتعرضت ، بعد تدخل الجيوش العربية لتنفيذ قرار التقسيم بوجهة اليهودي ، الى

حملة مضايقات بهدف « نزع سلاح الفلسطينيين والتضييق عليهم »[١١٧] .

ويشير الغوري الى أن « التنظيم السري » تأسس « في مطلع ١٩٣٤ »[١١٨] ، « وتم الاتفاق على أن يدفع كل عضو في التنظيم اشتراكاً شهرياً حده الأدنى جنيهان »[١١٩] ، وبني التنظيم على أساس الخلايا ، كل خلية تتألف من خمسة أفراد يرأسهم مسؤول »[١٢٠] ، و« تناط بعبد القادر الحسيني (قائد التنظيم) مهمة انشاء الخلايا واختيار المسؤولين عنها »[١٢١] ، وبلغ عدد « الشبان المنخرطين في التنظيم في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٤ نحو ٤٠٠ شخص »[١٢٢] . وينسب الى التنظيم مهاجمة مخافر الشرطة خلال كانون الثاني (يناير) ١٩٣٥ « في النبي صالح (قضاء رام الله) وأريحا (قضاء القدس) وسيلة الظهر واللجون (قضاء جنين) وطيبة بني صعب (قضاء طولكرم) وحلحول (قضاء الخليل) »[١٢٣] .

وحتى تستكمل « الحبكة »، يعقد « التنظيم السري » اتفاقاً مع عصابة أبي جلده (سرياً أيضاً) ، ومقابل مساعدته ، يتخلى عن أعمال السلب والنهب وقطع الطرق وينصرف الى « السطو على مراكز الشرطة والجيش »[١٢٤] .

والنتيجة الطبيعية لذلك كله ، أن يمثل عز الدين القسام « مدينة حيفا في اللجنة التنفيذية للحزب العربي الفلسطيني ، المعروف باسم حزب المفتي »[١٢٥] ، وأن يشاركه التمثيل في اللجنة التنفيذية عن مدينة حيفا « فؤاد عطا الله وحكمت النملي »[١٢٦] .

كل هذه الزوبعة ، كانت رداً على ما قاله الكاتب القسامي صبحي ياسين ، من أن رسولاً من القسام يدعى محمود سالم ويلقب بأبي أحمد القسام ، اتصل بالحاج أمين الحسيني ، بواسطة الشيخ موسى العزراوي ، ليعلمه عن عزم القسام القيام بالثورة في شمال فلسطين « على أن يشرع الحاج أمين في الأعداد للثورة في جنوبها . وأجاب الحاج أمين بواسطة العزراوي : أن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل ، وأن الجهود السياسية التي تبذل تكفي لحصول عرب فلسطين على حقوقهم »[١٢٧] .

وأعاد ناجي علوش ذكر المقطع ذاته ، من موقع المتبني له[١٢٨] ، وذكره عبد القادر ياسين بصيغة « بعد فشله في اجتذاب المفتي »[١٢٩] ، وأكد وجود الرسول

محمد عزة دروزة قائلاً :« وقد أرسل القسام شخصاً الي ذات يوم في موضوع الخلية الجهادية التي يرعاها ، وقال أنه يريد أن يواجه الحاج أمين أيضاً ، ولا أدري هل واجهه أم لا »[١٣٠] . وهرباً من موضوع الرسالة تشير مجلة الهيئة العربية العليا الى أنه « تمت مباحثات سرية بين القسام وزملائه ، وبين المفتي ورجال الحركة الوطنية في القدس ، وانتهت الى اتفاق على انتاج خطة معينة »[١٣١] . وتغدو الخطة المعينة ، عند اميل الغوري ، مصادرة شاملة « فوضع الحاج أمين للمنظمة القسامية ميثاقاً دينياً وطنياً وأنظمة وقوانين داخلية في منتهى الفعالية والاتقان »[١٣٢] .

والمصادرة الثالثة ، جاءت من حزب الاستقلال ، حيث سمى « الشيخ عز الدين القسام ورمزي عامر وتوفيق منسي »[١٣٣] ، كأبرز أعضاء الحزب في حيفا . فعندما تأسس الحزب « كان معتمدة في حيفا رشيد الحاج ابراهيم ، فشكل لجنة من استقلاليي النزعة كان من بينهم الشيخ عز الدين القسام »[١٣٤] . وبهذا المعنى لا تبدو اللجنة كصيغة حزبية ، وانما كواجهة وطنية استقلالية ، خاصة وان حزب الاستقلال هو أول حزب يتشكل بعد افلاس سياسة المؤتمرات . وأول حزب ، في موجة تأسيس الأحزاب ، يتطابق مع الدعوة القسامية في جعل الانتداب البريطاني لا الصهيونية العدو الأول ورأس البلاء . ومع ذلك ، لا تغدو العلاقة بين رشيد الحاج ابراهيم وعز الدين القسام أكثر من صداقة « خاصة »[١٣٥] ، لعب فيها رشيد الحاج ابراهيم ، دور المؤازر والداعم للحركة القسامية . وبذلك تصبح حركة القسام غير مرتبطة في تنسيق مع أي حزب من الأحزاب العربية المعروفة آنذاك . « وإذا كانت الأحزاب تتسابق على اعلان انتساب القسام اليها بعد استشهاده ، فذلك عائد الى الشعبية الكبيرة التي لاقتها حركته بين أوساط الجماهير العربية في فلسطين وباقي الأقطار العربية فيما بعد»[١٣٦] .

وروى فارس سرحان ، ان صفوت الحسيني زاره في الكابري عام ١٩٣٦ ، كمندوب عن الحاج أمين الحسيني ، وطلب منه ترتيب العلاقة بين القساميين والمفتي قائلاً : « لو كانت لهم صلة بالمفتي لأمّن احتياجاتهم ، ولما حدث ما حدث مع الشيخ القسام ورفاقه . ونحن الآن نعيد طرح السؤال ونريد اقامة الصلة ، ونلفت نظرهم الى أن المفتي يستطيع وحده ، ان يمدهم بأشياء كثيرة ، فلماذا لا يعترفون به كرأس للحركة الوطنية ؟ »[١٣٧] . ونفى الشيخ سليمان أبو حمام

وجود أي « علاقة للشيخ عز الدين القسام مع المجلس الإسلامي الأعلى أو ان يكون قد تلقى مساعدات منه »، وذكر انه في عام ١٩٣٧ فقط ، وعن طريق الشيخ كامل القصاب « أخذ يحضر مائة جنيه في الشهر للقساميين من المفتي ، فيما كانت مصاريفنا الشهرية سبعمائة جنيه »[١٣٨] . ورغم ان المفتي لم يشارك في تشييع القسام ، أو في حضور مهرجان ذكرى اربعينه ، فقد زار منزل الشهيد وقدم لزوجته وأطفاله « عشر جنيهات »[١٣٩] .

(١) أكرم زعيتر ، **مقـابلة شخصية** في بيـروت ، بتاريخ ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٢ .

(٢) محمد محمود زعروره ، **مقابلة شخصية** ، في بيروت ، مخيم شاتيـلا بتاريـخ ١ آذار (مارس) ١٩٨٢ .

(٣) محمد نمر الخطيب ، **مقابلة شخصيـة** ، في بيروت بتاريخ ١ شباط (فبراير) ١٩٨٢ .

(٤) **المصدر نفسه** .

(٥) **المصدر نفسه** .

(٦) محمد عز الدين القسام ، **مقابلة شخصية** في دمشق ،بتاريخ ٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨١ .

(٧) سليمان أبو حمـام ، **مقابلة شخصيـة** ، في دمشق بتاريخ ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨١ .

(٨) محمد نمر الخطيب ، **مصدر سبق ذكره** .

(٩) ابراهيم السهلي ، **مقابلة شخصية** في بيروت ، بتاريخ ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٢ .

(١٠) سليمان أبو حمام ، **مصدر سبق ذكره** .

(١١) **المصدر نفسه** .

(١٢) حسن شبلاق ، **مقابلة شخصية** في بيروت ، بتاريخ ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٢ .

(١٣) **المصدر نفسه** .

(١٤) ابراهيم السهلي ، **مصدر سبق ذكره** .

(١٥) محمد نمر الخطيب ، **مصدر سبق ذكره** .

(١٦) سليمان أبو حمام ، **مصدر سبق ذكره** .

(١٧) محمد نمر الخطيب ، **مصدر سبق ذكره** .

(١٨) ابراهيم السهلي ، **مصدر سبق ذكره** .

(١٩) سليمان أبو حمام ، **مصدر سبق ذكره** .

(٢٠) **المصدر نفسه** .

(٢٠) **المصدر نفسه** .

(٢١) **المصدر نفسه** .

(٢٢) **المصدر نفسه** .

(٢٣) ابراهيم السهلي ، **مصدر سبق ذككره** .

(٢٤) ابراهيم الشيخ خليل (أبو اسعاف) ، **مقابلة شخصية** في دمشق ، بتاريخ ٨و٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨١ .

(٢٥) سليمان أبو حمام ، **مصدر سبق مصدر سبق ذكره** صادق عليها كل من : ابراهيم الشيخ خليل ، حسن بـاير ، حسن شبـلاق وعبد المـالك مصطفى القسام .

(٢٦) ابراهيم الشيخ خليل ، **مصدر سبق ذكره** ، صادق عليها سليمان أبو حمام وحسن شبلاق .

(٢٧) خليل الطبري ، **مقابلة شخصية** في بيروت ، بتاريخ ٤ شباط (فبراير) ١٩٨٢ .

(٢٨) سليمان أبو حمام ، **مصدر سبق ذكره**

(٢٩) ابراهيم السهلي ، **مصدر سبق ذكره** .

(٣٠) الشيـخ خليل محمـد عيسى (أبـو ابـراهيم الكبير) ، ذكره د . كامل محمـود خله ، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ ـ ١٩٣٥** ، بيروت : مركز الأبحاث ، أيار (مايو) ١٩٧٤ ، ص ٣٧٥ .

(٣١) « محمد أديب » فخر الدين القسام ، **مقابلة شخصية** في جبلة ـ اللاذقية ، بتاريخ ٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨١ .

(٣٢) صبحي ياسين ، **الثورة العربية الكبرى في فلسطين** ، القاهـرة : دار الهنا للطبـاعة ، (بـلا تاريخ) ، ص ٢٢ .

(٣٣) عبد المالك مصطفى القسام ، **مقابلة شخصية** في جبلة ـ اللاذقيـة ، بتـاريـخ ٦ كـانـون الأول (ديسمبر) ١٩٨١ .

(٣٤) **المصدر نفسه** .

(٣٥) جريدة **الكرمل الجـديد** ، (حيفـا) ، ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ .

(٣٦) حسن شبلاق ، **مصدر سبق ذكره** .

(٣٧) سليمان أبو حمام ، **مصدر سبق ذكره**

(٣٨) حسن شبلاق ، **مصدر سبق ذكره** .

(٣٩) جميـل البحري ، **تـاريخ حيفـا** ، حيفـا ، ١٩٢٢ ، ص٢١ .

(٤٠) أحمد الشقيري ، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** ، بيروت : دار العودة ، ١٩٧٣ ص٧٣ .

(٤١) سليمان أبو حمام ، **مصدر سبق ذكره** .

(٤٢) **المصدر نفسه** .

(٤٣) **المصدر نفسه** .

(٤٤) **المصدر نفسه** .

(٤٥) **المصدر نفسه** .

(٤٦) بيتروف ، **ناريخ الاقطار العربية المعاصر** ، مـوسكو : دار التقـدم ، الجزء الأول ، ١٩٧٥ ص ٢٢١ ـ ؟طط .

(٤٧) عبد المالك مصطفى القسام ، **مصـدر سبق ذكره** .

(٤٨) ابراهيم السهلي : **مصدر سبق ذكره** .

(٤٩) محمد نمر الخطيب ، **مصدر سبق ذكره** .

(٥٠) عبد المالك مصـطفى القسام ، **مصـدر سبق ذكره** .

(٥١) ابراهيم السهلي ، **مصدر سبق ذكره** .

(٥٢) محمد نمر الخطيب ، **مصدر سبق ذكره** .

(٥٣) حسن شبلاق ، **مصدر سبق ذكره** .

(٥٤) سليمان أبو حمام ، **مصدر سبق ذكره** .

(٥٥) حسن شبلاق ، **مصدر سبق ذكره** .

(٥٦) غسـان كنفـاني « ثـورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ في فلسـطين ، خلفيات وتفـاصيل وتحليـل »، **شؤون فلسـطينية** ، العـدد السادس ، كـانـون الثـاني

(ينـايـر) ١٩٧٢ ، ص ٤٩ ، (ليس الاقتبـاس نصاً)

(٥٧) صبحي ياسين ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢١ .

(٥٨) ابراهيم الشيخ خليل (أبو اسعاف) ، **مصدر سبق ذكره** .

(٥٩) حسن باير ، **مقابلة شخصية في قابون - دمشق** بتاريخ ٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨١ .

(٦٠) محمد عز الدين القسام ، **مصدر سبق ذكره** .

(٦١) محمد حافظ يعقوب ، **نظرة جديدة الى تاريخ القضية الفلسطينية ١٩١٨ - ١٩٤٨** . **بيروت : دار الطليعة** ، **أيلول (سبتمبر) ١٩٧٣** ، ص ١٦٣ .

(٦٢) محمد عز الدين القسام ، **مصدر سبق ذكره** .

(٦٣) سليمان أبو حمام ، **مصدر سبق ذكره** .

(٦٤) ابراهيم الشيخ خليل ، **مصدر سبق ذكره** .

(٦٥) محمد عز الدين القسام ، **مصدر سبق ذكره** .

(٦٦) ابراهيم الشيخ خليل ، **مصدر سبق ذكره** .

(٦٧) حسن شبلاق : **مصدر سبق ذكره** .

(٦٨) عثمان عبد الهادي أبو فرحة ، **مقابلة شخصية** في دمشق بتاريخ ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨١ .

(٦٩) فارس سرحان ، **مقابلة شخصية** في بيروت ، بتاريخ ٢٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٢ .

(٧٠) أبو ابراهيم الكبير ، **الثورة الفلسطينية** العدد ١٩٤ ، ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٩ ، ص ٢٤ - ٢٦ .

(٧١) د . كامل محمود خله : **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٧٦ .

(٧٢) سليمان أبو حمام ، **مصدر سبق ذكره** .

(٧٣) حسن شبلاق ، **مصدر سبق ذكره** .

(٧٤) أحمد الشقيري ، **مصدر سبق ذكره** ، الجزء الأول .

(٧٥) بيان نويهض الحوت ، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ - ١٩٤٨** ، بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨١ ، ص ١٨٨

(٧٦) جريدة **الجامعة العربية** ، (القدس) ، ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٢ .

(٧٧) **المصدر نفسه** ، ٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٢ .

(٧٨) د . كامل محمود خله ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٧٩ .

(٧٩) بيان نويهض الحوت ، الكتاب ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢١٦ .

(٨٠) **المصدر نفسه** .

(٨١) **المصدر نفسه** ، ص ٢١٧ .

(٨٢) أحمد الشقيري ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٤٨ .

(٨٣) صبحي ياسين ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٠ .

(٨٤) عادل حسن غنيم ، « ثورة الشيخ عز الدين القسام » ، **شؤون فلسطينية** ، العدد السادس ، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢ ، ص ١٨٢ .

(٨٥) ناجي علوش ، **المقاومة العربية في فلسطين ١٩١٧ - ١٩٤٨** ، بيروت : دار الطليعة ، الطبعة الثانية ، آب (أغسطس) ١٩٧٠ ، ص ١١٥ .

(٨٦) بيان نويهض الحوت ، **مصدر سبق ذكره** ، **مخطوط الرسالة** ، ص ١١٠ .

(٨٧) خليل السكاكيني ، **كذا انا يا دنيا** ، القدس المطبعة التجارية ، ١٩٥٥ ، ص ١٦٤ .

(٨٨) د . عبد الوهاب الكيالي ، **تاريخ فلسطين الحديث** ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الثانية ، آذار (مارس) ١٩٧٢ ، ص ١٢٥ .

(٨٩) بيان نويهض ، **مصدر سبق ذكره** ، مخطوط الرسالة ، ص ١١٠ .

(٩٠) بيان نويهض ، **مصدر سبق ذكره** ،

(٩٠) **بيان نويهض الحوت** ، **المصدر نفسه** ، ص ١٥٩ .

(٩١) محمد عزة دروزة ، **حول الحركة العربية الحديثة** ، صيدا : المطبعة العصرية ، الجزء الثالث ، ١٩٥٩ ، ص ٥٤ و ٥٥ .

(٩٢) **الجامعة العربية** ، ٩ تموز (يوليو) ١٩٢٨ .

(٩٣) **المصدر نفسه** ، ١٢ تموز (يوليو) ١٩٢٨ .

(٩٤) **المصدر نفسه** ١٣ آب (اغسطس) ١٩٣٠

(٩٥) **المصدر نفسه**

بيان نويهض الحوت ، **مصدر سبق ذكره** ، الكتاب ، ص ١٩٦ .

(٩٧) عبد الوهاب الكيالي (جمع وتصنيف) ، **وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨ – ١٩٣٩** ،، بيروت وبغداد : مؤسسة الدراسات الفلسطينية – وجمعية صندوق فلسطين ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٦٨ نص كراس دستور جمعية الشبان المسلمين بنابلس من ص ١٠١ الى ص ١١١ .

(٩٨) **المصدر نفسه** ، ص ١٠٣ .

(٩٩) بيان نويهض الحوت ، **مصدر سبق ذكره** ، الكتاب ، قوائم الأسماء ص ٨٦٢و ٨٦٣ .

(١٠٠) **الجامعة العربية** ، ٢ حزيران (يونيو) ١٩٣٢ .

(١٠١) **المصدر نفسه** ، ٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٢ .

(١٠٢) **المصدر نفسه** ، ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٢ .

(١٠٣) **المصدر نفسه** ، ٣١ تموز (يوليو) ١٩٣٢ .

(١٠٤) محب الدين الخطيب (جمع) ، **ذكرى موقعة حطين** ، القاهرة : المطبعة السلفية ومكتبتها ، ١٩٣٢ ، والكراس جمع لكلمات الشيخ محمد كامل القصاب ، الأمير شكيب ارسلان ، محب الدين الخطيب ، السيد محمد رشيد رضا ، الشيخ عبد الوهاب النجار ، خير الدين الزركلي ، عبد الرحمن عزام ، محمد عزة دروزة ، اسعاف النشاشيبي ، الشيخ عبد المحسن الكاظمي ، أكرم زعيتر وحمدي الحسيني .

(١٠٥) محمد عز الدين القسام ، **مصدر سبق ذكره** .

(١٠٦) **المصدر نفسه** .

(١٠٧) ابراهيم الشيخ خليل ، **مصدر سبق ذكره** .

(١٠٨) محمد نمر الخطيب ، سليمان أبو حمام ، حسن شبلاق ، ابراهيم الشيخ خليل ، ابراهيم السهلي : **مصادر سبق ذكرها** .

(١٠٩) حسن شبلاق ، **مصدر سبق ذكره** ؛ محمد نمر الخطيب **مصدر سبق ذكره** .

(١١٠) محمد نمر الخطيب ، **مصدر سبق ذكره** .

(١١١) جورج انطونيوس ، **يقظة العرب** ، (ترجمة د . ناصر الدين الأسد ود . احسان عباس) ، بيروت ونيويورك : دار العلم للملايين ومؤسسة فرنكلين ، ١٩٦٢ ، ص ٣٣١ .

(١١٢) بيان نويهض الحوت ، **مصدر سبق ذكره** مخطوط الرسالة ، ص ٢٧٠ .

(١١٣) د . خيرية قاسمية (اعداد) ، **فلسطين في مذكرات القاوقجي ١٩٣٦ ـ ١٩٤٨** ، بيروت : مركز الأبحاث ودار القدس ، أيار (مايو) ١٩٧٥ ، الجزء الثاني ، ص١٥ .

(١١٤) **المصدر نفسه** ، ص ٥٢ .

(١١٥) **المصدر نفسه** ، ص٥٥ .

(١١٦) اميل الغوري ، **جهاد الفلسطينيين ضد الاستعمار والحركة اليهودية ١٩١٨ ـ ١٩٤٨** ، الهيئة العربية العليا للفلسطينيين ، (بلا تاريخ) ، ص ٤٣ .

(١١٧) اميل الغوري ، **فلسطين** ، القاهرة : مديرية الفنون والثقافة الشعبية بوزارة الارشاد ، ١٩٦٢ ، ص ١٣٠ .

(١١٨) اميل الغوري ، **فلسطين عبر ستين عاماً** . بيروت : دار النهار ١٩٧٢ ، ص ٢٣٢ .

(١١٩) **المصدر نفسه** ، ص ٢٣٣ .

(١٢٠) **المصدر نفسه** ، ص ٢٣٣ .

(١٢١) **المصدر نفسه** ، ص ٢٣٣ .

(١٢٢) **المصدر نفسه** ، ص ٢٣٤ .

(١٢٣) **المصدر نفسه** ، ص ٢٣٦ .

(١٢٤) **المصدر نفسه** ، ص ١٨٢ .

(١٢٥) اميل الغوري ، جهاد الفلسطينيين ... ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٧ .

(١٢٦) اميل الغوري ، فلسطين عبر ستين عاماً ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٩٧ .

(١٢٧) صبحي ياسين ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٢ .

(١٢٨) ناجي علوش ، **مصدر سبق ذكره** ، ص١١٦ .

(١٢٩) عبد القادر ياسين ، كفاح الشعب الفلسطيني

قبل العام ١٩٤٨ ، بيروت : مركز الأبحاث ، أيار (مايو) ١٩٧٥ ، ص ١٥٥

(١٣٠) بيان نويهض الحوت ، **مصدر سبق ذكره** ، الكتاب ، ص ٣٨٤ ، عن مقابلة شخصية مع دروزة في دمشق (٢٢/١٠/١٩٧٤) .

(١٣١) مجلة **فلسطين** ، (لسان حال الهيئة العربية العليا . العدد ٣ : ١٥ آذار (مارس) ١٩٦١ ، ص ٧٦

(١٣٢) اميل الغوري ، **فلسطين عبر ستين عاماً** ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٥٢ .

(١٣٣) سميح شبيب ، **حزب الاستقلال العربي في فلسطين ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣** ، بيروت : مركز الأبحاث ، الطبعة الأولى ، ١٩٨١ ، ص ٥٠ .

(١٣٤) أكرم زعيتر ، **مصدر سبق ذكره** .

(١٣٥) د . كامل محمود خله ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٧٨ .

(١٣٦) محمد حافظ يعقوب ، **مصدر سبق ذكره** ، ص١٦٤ .

(١٣٧) فارس سرحان ، **مصدر سبق ذكره** .

(١٣٨) سليمان أبو حمام ، **مصدر سبق ذكره** .

(١٣٩) محمد عز الدين القسام ، **مصدر سبق ذكره** .

* وصفه محمد نمر الخطيب قائلاً : كان قصيراً ، نحيف الجسم ، أسمر اللون ، يلبس على رأسه عمة صفراء على طربوش .

** بيت في الطابق الثاني ، يصعد اليه بسلم من حجر .

* يحتفظ حسن شبلاق بصورة تذكارية لأعضاء مجلس الادارة وطاقم المدرسة التعليمي والاداري عام ١٩٢٤ .

** عمل في جريدة « اليرموك » الحيفاوية ، صاحبها ورئيس تحريرها كمال عباس ، صدرت في عام ١٩٢٤ . عضو المؤتمر العربي الفلسطيني السابع ضمن وفد حيفا . نائب الرئيس في مؤتمر الاندية الإسلامية (١٩٢٨) . عضو جمعية الشبان المسلمين في حيفا ، في انتخابات ١٩٢٨و و ١٩٣٠ .

(٣٣) * كان زميل الشيخ عز الدين القسام في الأزهر ، ومن المؤكد أنه جاء بعده الى حيفا ، لأنه هو الذي رتب له جواز سفره المزور في دمشق .

** يعتقد ابراهيم السهلي ان مدراء مدرسة البرج الإسلامية كانوا على التوالي : رشيد بقدونس ، الشيخ كامل القصاب ، أحمد سعيد مراد (محمد سعيد ديب) ، أحمد عبد القادر الحـاج . ويصادق سليمان أبو حمام وأكرم زعيتر على أن رشيد بقدونس كان أول مدير للمدرسة .

*** يقول الشيخ محمد نمر الخطيب ان المسجد بني على قطعة من المقبرة القديمة ، وخصص طابقه الأرضي للمخازن ، وجعل المسجد في طابقه الثاني . وسمي الاستقلال تفاؤلاً بالاستقلال .

* سوري من تل شهاب وأمه من الطنطورة .

* تشكلت اللجنة من : موسى العبويني ، حسن شبلاق ، صالح أبو رواش وابراهيم شبلاق .

* تم الاطلاع على مخطوط رسالة الدكتوراه للسيدة بيان نويهض الحوت ، قبل أن تصدر في كتاب . وجرى الاطلاع على الكتاب لاحقاً . وللتمييز بين الفقرات المقتبسة من المصدرين سيشار الى المصدر بالمختصر مخطوط الرسالة والكتاب .

* ابن أخت الحاج أمين الحسيني ، وأحد معتمديه للاتصالات السيـاسية ولم يكن عضـواً في المؤتمر .

* نشرت جريدة « الجامعة العربية » ١٩٣٢/١١/١٣ الخبر التالي : « رأس الحاج أمين أفندي الحسيني ، رئيس المجلس الأعلى ، حفلة جمعية الشبان المسلمين في يافا ، بمناسبة عودتها الى العمل بعد تعطيلها . ورافقه الأستاذ حسن أفندي أبو السعود ، قاضي الرملة الشرعي ، والأستاذ محمد افندي العفيفي ، مأمور أوقاف يافـا ، وصفوت أفنـدي يونس الحسيني ومنيف أفنـدي الحسيني » .

صدر عن دار الحوار أيضاً

* الأبجدية : منشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب
* التعذيب عبر العصور
* الأبخاز : أشهر المعمرين في العالم
* عصر العقل : فلاسفة القرن السابع عشر
* الإله اليهودي : بحث في العلاقة بين الدين وعلم النفس
* علم النفس التحليلي
* علم النفس الجنسي
* ثلاثية الحلم القرمطي ــ دراسة لأدب القرامطة
* سوسيولوجيا الثقافة
* مبادىء في علم الأدلّة
* المكتبة الموسيقية
* مدخل إلى الطب النفسي وعلم النفس المرضي
* مشاهد إنسانية ــ أربعة أجزاء

دار الحوار للنشر والتوزيع

سورية ــ اللاذقية ــ ص ب ١٠١٨